قواعد العشق الخمسون

محمد حامد

دار المحرر الأدبي

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

مقدّمة

. . . فلما دلَّ تنويع أصل الإيجاد وتفريع عالم السكون والفساد مع قدرة الموجِد على جعل ما أوجدَ من أصل واحد على سأم النفس من ملازمةَ الشيء الواحد في كل حال واستراحتها في اختلاف الأطوار بالنظر والانتقال ، وكان أعظم مطلوب منها تحصيل العلوم التي هي سبب السعادة الدينية وتشييد المباني الشرعية وجب إسعافها بالمفاكهات الأنيقة والأخبار اللطيفة الرشيقة لتنشط من عقال التعب وتستريح فتعود إلى المطلوب منها خفيفة من كل الوَصَب والنَّصب وذلك هو العلوم الأدبية كالتواريخ والأخبار ولطائف الحكايات والأشعار فقد وقع اختياري على اختصار كتاب " الزهرة " للأديب الأريب أبي بكر محمد بن داود بن علي بن خلف الأصبهاني ثم البغدادي الظاهري (المتوفى: ٢٩٧هـ) . . مستخلصاً منه " ٥٠ قاعدة " في أصول العشق . وبيان حال أصحابه ، وقد أسميته " قواعد العشق الخمسون " ؛ مزاحماً أهل العشق والهوى ، مع جليس ممتع ، وأليف

مؤنس . سأل أمير المؤمنين المأمون يحيى بن أكثم عن العشق ما هو؟ فقال: هو سوانح تسنح للمرء، فيهتم بها قلبه، وتؤثرها نفسه.

قال: فقال له ثمامة: اسكت يا يحيى! إنما عليك أن تجيب في مسألة طلاق أو محرم صاد ظبياً أو قتل نملةً، فأما هذه فمسائلنا نحن.

فقال له المأمون: قل يا ثمامة، ما العشق؟ فقال ثمامة: العشق جليس ممتع، وأليف مؤنس، وصاحب ملك مسالكه لطيفة، ومذاهبه غامضة، وأحكامه جائزة، ملك الأبدان وأرواحها، والقلوب وخواطرها، والعيون ونواظرها، والعقول وآراءها، وأعطي عنان طاعتها، وقود تصرفها، توارى عن الأبصار مدخله وعمي في القلوب مسلكه.

فقال له المأمون: أحسنت والله يا ثمامة! وأمر له بألف دينار.

وفي تعريفه أقوال وأحوال . . قال عبد الله بن جعفر المديني قلت لأبي زهير المديني: ما العشق؟ قال: الجنون والذل، وهو داء أهل الظرف.

و العشق أوله لعب وآخره عطب. . . قال بعض الفلاسفة: لم أر حقاً أشبه بباطل ولا باطلاً أشبه بحق من العشق، هزله جد وجده هزل، وأوله لعب وآخره عطب.

وذنوب العشاق ذنوب اضطرار. . يروى عن إبراهيم بن الفضل قال: سمعت يحيى بن معاذ يقول: لو كان إلي من الأمر شيء ما عذبت العشاق، لأن ذنوبهم ذنوب اضطرار لا ذنوب اختيار.

المؤلف

محمد حامد

obeikandl.com

-١-

من كثرت لحظاته دامت حسراته

قال بعض الحكماء :

ربَّ حربٍ جُنيت من لفظة ... وربَّ عشق غُرس من لحظة .

وقال أبو الغصن الأعرابي: خرجت حاجّاً فلما مررت بقباء تداعى النَّاس ألماً وقالوا قد أقبلت الصقيل فنظرت وإذا جارية كأن وجهها سيف صقيل فلما رميناها بالحدق ألقت البرقع على وجهها فقلت يرحمك الله إنا سفرٌ وفينا أجرٌ فأمتعينا بوجهك فانصاعت وأنا أرى الضحك في عينيها وهي تقول[1] :

وكنتَ متى أرسلتَ طرفكَ رائداً ... لقلبكَ يوماً أتبعتكَ المناظرُ

رأيتَ الذي لا تأكلهُ أنتَ قادرٌ ... عليه ولا عنْ بعضه أنتَ صابرُ

وقال جرير بن عطية[2] :

---

[1] مصارع العشاق ٢/ ١٩٤

[2] مصارع العشاق ٢/ ١٠

إنَّ العيونَ التي في طرفها مرضٌ قتلننا ثمَّ لمْ يحيينَ قتلانا
يصرعنَ ذا اللُّبِّ حتَّى لا حراكَ به وهنَّ أضعفُ خلقِ الله أركانا

ويُحكى أنَّ بثينة وعزَّة كانتا خاليتين تتحدثان إذ أقبل كثيِّر فقالت بثينة لعزَّة أتحبين أن أُبين لك إن كان كثيِّر فيما يظهره لك من المحبة غير صادق قالت نعم قالت: أدخلي الخباء فتوارت عزَّة ودنا كثيِّر حتَّى وقف على بثينة فسلَّم عليها فقالت له ما تركت فيك عزَّة مستمتَعاً لأحد فقال كثيِّر والله لو أن عزَّة أمَة لوهبتها لك قالت له بثينة إن كنت صادقاً فاصنع في ذلك شعراً فأنشأ يقول:

رمتْني علَى فوتِ بثينةُ بعدَ ما تولَّى شبابي وارْجحنَّ شبابُها
بعينين نجلاوين لوْ رقرقتْهُما لنوءِ الثُّريَّا لاستهلَّ سحابُها

فبادرت عزَّة فكشفت الحجاب وقالت يا فاسق قد سمعت البيتين قال لها فاسمعي الثالث قالت وما هو فأنشأ يقول:

ولكنَّما ترمينَ نفساً شقيَّةً لعزَّةَ منها صفوُها ولبابُها[1]

وقد ذُكر من أقاويل الشعراء في الهوَى أنَّه يقع ابتداؤه من النظر والسَّماع.

---

[1] التذكرة الحمدونية ٧/ ٢٢٣

-٢-

العقل عند الهوَى أسيرٌ والشَّوق عليهما أميرٌ

قال جالينوس:

العشق من فعل النفس وهي كامنة في الدماغ والقلب والكبد وفي الدماغ ثلاثة مساكن التَّخييل وهو في مقدم الرأس والفكر وهو في وسطه والذّكر وهو في مؤخره وليس يكمل لأحد اسم عاشق إلاَّ حتَّى إذا فارق من يعشقه لم يخلُ من تخييله وفكره وذكره وقلبه وكبده فيمتنع عن الطعام والشراب باشتغال الكبد ومن النوم باشتغال الدماغ والتَّخييل والذّكر له والفكر فيه فيكون جميع مساكن النفس قد اشتغلت به فمتى لم يشتغل به وقت الفراق لم يكن عاشقاً فإذا لقيه خلت هذه المساكن [1].

و لقد أحسن فيما وصف واحتجَّ لما قال فانتصف غير أنه ذكر حال العشق وحدّه وترك ذكر أحوال ما قبله وأحوال ما بعده وذلك أنَّ الأحوال الَّتي تتولد عن السماع والنظر مختلفة في باب العظم

---

[1] حياة الحيوان الكبرى ٢/ ٢٦٩

والصِّغر ولها مراتب. فأول ما يتولد عن النظر والسماع الاستحسان ثمَّ يقوى فيصير مودَّة والمودَّة سبب الإرادة فمن ودَّ إنساناً ودَّ أن يكون له خلاً ومن ودَّ غرضاً ودَّ أن يكون له مُلكاً ثمَّ تقوى المودَّة فتصير محبَّة والمحبَّة سبباً للطاعة.

وفي ذلك يقول محمد الوراق[1]:

تعصي الإلهَ وأنتَ تُظهرُ حبَّهُ ... هذا محالٌ في القياس بديعُ
لو كانَ حبُّكَ صادقاً لأطعتَهُ ... إنَّ المحبَّ لمنْ أحبَّ مُطيعُ

ثمَّ تقوى المحبَّة فتصير خُلَّة والخلَّة بين الآدميين أن تكون محبَّة أحدهما قد تمكَّنت من صاحبه حتَّى أسقطت السرائر بينه وبينه فصار متخلِّلاً لسرائره ومطَّلعاً على ضمائره.

ويقال إنَّ الخلَّة بين الآدميين مأخوذة من تخلُّل المودَّة بين اللَّحم والعظم واختلاطهما بالمخ والدم.

وقد أنشد عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود في هذا النحو:

---

[1] الكامل في اللغة والأدب ٣/ ٥١٣

تغلغلَ حبٌّ عَثمةَ في فؤادي فبـاديـهِ معَ الخافي يسيرُ

تغلغلَ حيثُ لمْ يبلغْ شرابٌ ولا حزنٌ ولمْ يبلغْ سرورُ[1]

ثمَّ تقوى الخلَّة فتوجب الهوَى والهوَى اسم لانحطاط المحب في مَحابِّ المحبوب وفي التوصُّل إليه بغير تمالك ولا ترتيب.

ثـمَّ تقـوى الحـال فيصـير عشـقاً والعاشـق يمنعـه مـن سـرعة الانحطاط في هوى معشوقه إشفاقه عليه وضنُّه بـه حتَّـى أنَّ إبقـاءه عليه ليدعوه إلى مخالفته وترك الإقبال عليه فمن النَّـاس مـن يتـوهَّم لهذه العلَّة أنَّ الهوَى أتمُّ من العشق وليس الأمر كذلك.

ثمَّ يزداد العشق فيصير تتْيِيمـاً وهـو أن تصـير حـال المعشـوق مستوفية للعاشق فلا يكون فيه معها فضل لغيرها ولا يزيـد بقياسـه شيئاً إلاَّ وجدته متكاملاً فيها.

وإذا كانت كل خواطر العشَّاق فيمـا يتمنَّـاه واقعـة ممَّـن يهـواه على الأمر الَّذي يرضاه فهذه في المشاكلة الطبيعية الَّتي لا يفنيهـا مـرُّ الزَّمـان ولا تـزول إلاَّ بـزوال الإنسـان وإذا صـحَّ هـذا المـذهب لم يعجب من أن يميل الإنسان إلى الإنسان بخلَّـة أوْ خلَّـتين فـإذا زالـت

---

[1] الأغاني ٩/ ١٧٦

العلَّة زال الهوَى فلا يزال المرابط متنقِّلاً إلى أن يصادف من يجتمع فيه هواه فحينئذ يرضاه فلا ينعطف عنه إلى أحد سواه.

ثمَّ يزداد التَّتييم فيصير ولهاً والوَله هو الخروج عن حدود الترتيب والتَّعطُّل عن أحوال التَّمييز حتَّى تراه يطلب ما لا يرضاه ويتمنَّى ما لا يهواه ثمَّ لا يحتذي مع ذلك مثالاً ولا يستوطن حالاً.

وقد قال حبيب بن أوس الطائي في نحو هذا:

ولَّهتهُ العُلى فليسَ يعدُّ ال بؤسَ بؤساً ولا النَّعيمَ نعيماً

والشَّوق تابع لكلِّ واحدة من هذه الأحوال والمستحسن يشتاق إلى ما يستحسنه على قدر محلِّه من نفسه ثمَّ كلَّما قويت الحال قوي معها الاشتياق فالحبّ وما أشبهه يتهيَّأ كتمانه فإذا بلغت الاشتياق بطل الكتمان.

أتاني هواها قبلَ أنْ أعرفَ الهوَى فصادفَ قلبي خالياً فتمكَّنا

فالمحبَّة ما دامت لهواً ونظراً فهي عذبة المبتدأ سريعة الانقضاء فإذا وقعت مرتَّبة على التَّمام في المصافاة تعذَّرت قدرة القلب على هواه فحينئذ تضلُّ أفهام المتميزين وتبطل حيل المتفلسفين.

-٣-

من تداوى بدائه لم يصل إلى شفائه

ذكرنا أنَّ أصل الهوَى يتولَّد من النَّظر والسَّماع ثمَّ ينمي حالاً بعد حال فإذا كان النظر الصَّاحي إلى الصُّورة الَّتي يستحسنها طرفه مؤكِّداً للمنظور إليه المحبَّة في قلبه كان نظر المحبّ بعد تمكُّن المحبَّة له أحرى أن يغلبه على لبّه ويزيده كرباً على كربه ألا ترى أنَّ من حمَّ[1] يومين متواليين كان ألمه في الثاني من اليومين إذا تساوى مقدار الحمَّيين أصعب إليه من أوّل اليومين.

وفي مثل ذلك يقول حبيب بن أوس الطائي[2]:

بَعْثْنَ الهوَى في قلبِ من ليسَ هائماً فقلْ في فؤادٍ رُعنهُ وهو هائمُ

وَقد حُكيَ ممّا يدْخل فِي هَذَا الْبَاب أنَّ بَعْض المترفين أسَفّ إِلَى طَرِيقَة المتصوفة، واستشرف لصحبتهم والاختلاط بهم وملابستهم، فَشَاور فِي هَذَا بَعْض مشيختهم فردّه عَمَّا تشوف إِلَيْهِ

---

[1] أصيب بالحمى

[2] العقد الفريد ٦/ ٢٦٢

من هذا وحذّره من التَّعَرُّض لهُ. فَأبت نَفسه إلَّا إجَابَة ما جذبته الدَّوَاعي إلَيْه وعطفته الخواطر عَلَيْه، فَمَال إلَى فريق من هَذه الطَّائفَة فعلق بهم واتصل بجلتهم، ثُمَّ صحب جَمَاعَة منْهُم مُتَوَجهاً إلَى الْحَج فعجز في بَعْض الطَّريق عَنْ مسايرتهم وَقصر عَن اللحاق بهم فَمَضَوْا وتخلّف عَنْهُمْ، واستند إلَى بَعْض الأميال إرَادَة الاسْتراحَة من الإعياء من الكلال، فَمر به الشَّيْخ الَّذي شاوره فيما حصل فيه قَبْلَ أن يتسنّمه فَنَهَاهُ عَنْهُ، وحذره منْهُ، فَقَالَ هَذَا الشَّيْخ مُخَاطبا لَهُ يَقُولُ:

إنَّ الَّذينَ بخير كنتَ تذكرُهُمْ قَضَوا عَلَيْكَ وعنهم كنتُ أنهاكا

فَقَالَ لَهُ: فَمَا أصنع الْآن؟

فَقَالَ لَهُ:

لَا تَطْلُبَنَّ حَيَاة عِنْدَ غيرهمُ فَلَيْسَ يُحييك إلَّا مَنْ توفاكا[1]

فهذا البائس قد صبر على مضاضة دائه مع علمه بأنه زائد في دائه ولم ير أن ينعطف إلى سواه ولا طلب الراحة إلاَّ من عند من ابتلاه.

---

[1] الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي ص٣١

-٤-

ليس بلبيبٍ من لم يصف ما به لطبيبٍ

قال أنو شروان لبزرجمهر : متى يكون العيبيُّ بليغاً ؟

فقال إذا وصف هوًى أو حبيباً .

و قد تمنع المحبّ هيبة المحبوب من النيل الَّذي هو اللُّطف من الشَّكوى محلاً في القلوب .

قال أبو العباس أحمد بن يحيى[1]:

وإنِّي لأخشَى أنْ أموتَ فُجاءةً وفي النَّفسِ حاجاتٌ إليكِ كمَا هيَا

وإنِّي ليُنْسيني لقاؤك كلَّما لقيتك يوماً أني أبثَّك ما بيَا

وقالُوا به داءٌ عياءٌ أَصابهُ وقدْ علمتْ نفسِي مكانَ دوائيَا

فهذا يخبرُ أنَّ لقاءها هو الَّذي يمنعهُ من شكوى ما يجده إلاَّ أنَّه يشفق من ضرره على نفسه ولا يُبقي بكتمانه على غيره . على أنَّه قد قصَّر عنه كثير من أهل هذا العلم في قوله : إنَّ لقاءها يحدث في

---

[1] الأغاني ٢/ ١١

قلبه حالاً لم تكن قبل ذلك ظاهرة من نفسه إذ لو كان الهوَى قد استوفى منه حقَّه وتناهى به إلى غاية بعده لما كان اللقاء يزيد شيئاً ولا ينقصه.

كما قال يزيد بن الطثرية[1]:

ولَمَّا تناهَى الحبُّ في القلبِ وارداً أقامَ وسُدَّتْ بعدُ عنهُ مصادرهْ

فأيُّ طبيبٍ يُبرئُ الحبَّ بعدَما يسرُّ به بطنُ الفؤادِ وظاهرهْ

[1] الأغاني ١٦ / ٢٠

obeikandl.com

-٥-

إذا صحَّ الظفَرُ وقعتِ الغِيَرُ

في هذا الباب تحريض على الكتمان وتحذير من الإعلان والعلَّة في هذا أنَّ المحبوب يستعطف محبَّه ليشرف على حقيقة ما في قلبه وليتمكَّن أيضاً هواه من نفسه فإذا وقع له اليقين استغنى عن التعرُّف وإذا حصل له الودُّ استغنى عن التَّألُّف فحينئذ يقع الغضب عن غير ذنب والإعراض من غير وجدٍ لسكون القلب الواثق واستظهار المعشوق على العاشق.

قال جميل بن معمر[1]:

إذا قلتُ ما بي يا بثينةُ قاتلي ... منَ الحبِّ قالتْ ثابتٌ ويزيدُ

وإنْ قلتُ رُدِّي بعضَ عقلي أعِشْ بهِ معَ النَّاسِ قالتْ ذاكَ منكَ بعيدُ

فلا أنا مردودٌ بما جئتُ طالباً ... ولا حبُّها فيما يبيدُ يَبيدُ

إذا فكَّرتْ قالتْ قدْ أدركتُ ودَّهُ ... وما ضرَّني بُخلي ففيمَ أجودُ

---

[1] نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ٥/ ٩٩

يموتُ الهوَى منِّي إذا ما لقيتُها ... ويحيَى إذا فارقتُها فيعودُ

وقال ذو الرمة[1]:

ولَمَّا شكوتُ الحبَّ كيْما تُثيبَني ... بوجدِي قالتْ إنَّما أنتَ تمزحُ

دلالاً وإبعاداً عليَّ وقد أرَى ضميرَ الحشَى قدْ كادَ بالقلبِ ينزحُ

فهذا التَّجنّي والمباعدة أمتع من الإقرار والمواصلة لأن الوصل المتقدم لوقوع العلم إن كان عن مودّة صادقة لم يزده العلم بحقيقة الحال إلاَّ توكيداً وإن كان امتحاناً وتعرُّفاً لم تزده الثقة إلاَّ وفاء وتعطُّفاً وإن كان الَّذي تظهره الثقّة والإدلال نعمة لا يؤدى شكرها إذْ كان دليلاً على تمام الحال الَّتي قصدها ومنهم من يتظاهر عليه ثقلها فيضعف فؤاده عن حملها فتراه ينهى ويأمر بالكتمان ومن قنع بهذه الحال كان انتفاعه قليلاً وقلقه بتعرُّف حاله عند صاحبه طويلاً وليست تنال الرُّتب إلاَّ بالتَّجاسر ولا تصحّ العلى إلاَّ للمخاطر وربَّما نجَّت الجبان قناعته وأهلكت الشُّجاع جسارته.

يُحكى أن فتًى من الأعراب يكنَّى امرؤ القيس هويَ فتاة من الحيّ فلمَّا وقفت على ما لها عنده هجرته فأشفى على التلف فلما

---

[1] الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي ص٢٨١

بلغها ذلك جاءت فأخذت بعضادتي الباب وقالت كيف نجدك يا امرؤ القيس فأنشأ يقول:

دنتْ وظلالُ الموتِ بيني وبينها وأدلتْ بوصلٍ حينَ لا ينفعُ الوصلُ

ثمَّ لم يلبث إلاَّ يسيراً حتَّى مات فمن غلب عليه الجبن من مثل هذه الحال مال إلى التستُّر والكتمان ومن طمع في مثل ما ذكرنا من حسن المجازاة بالعدل والوصال مال إلى الإعلان وبلوغ الغاية في الوجهين جميعاً شديد والتَّوسُّط أقرب إلى السَّلامة لأن من لم تعلمه بما تنطوي له لم تلذَّ بما يبدو لك من وصله والهجر الَّذي يتولَّد عن الثّقة بالوداد خير من الوصال الَّذي يقع من غير اعتماد ومن أطلعته على كل ما تضمره له لم تجد سبيلاً إلى مكافاته على ما يتجدد لذلك من إحسانه هذا إذا سلمت من الدَّالة المؤدية إلى التلف فخير الأمور لمن أطاقه أن يظهر بعضاً ويخفي بعضاً ثمَّ يظهر الازدياد حالاً فحالاً على أن الحال إذا استغرقت صاحبها كان استعمال الاختيار فيها محالاً.

ولقد أحسن العباس بن الأحنف حيث يقول[1]:

---

[1] محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء ٢/ ١١٦

مَنْ كانَ يزعمُ أنْ سيكتمُ حبَّهُ ... حتَّى يشكِّكَ فيه فهوَ كذوبُ
الحبُّ أغلبُ للرِّجال بقهره ... منْ أنْ يُرَى للسِّرِّ فيه نصيبُ
وإذا بدَا سرُّ اللَّبيب فإنَّهُ ... لَمْ يبدُ إلاَّ وهوَ مَغلوبُ
إنِّي لأُبغضُ عاشقاً مُتحفِّظاً ... لمْ تتَّهمهُ أعينٌ وقلوبُ

obeikandl.com

التَّذلُّلُ للحبيبِ مِن شيمِ الأديبِ

قد ذكرنا أن تقصير المحبوب عن مواصلة محبّه وتراخيه عن إظهاره على كل ما له في قلبه إنَّما يتولَّدان عن وقوع الثقَّة به فربَّما جهل المحبُّ على نفسه فتوهَّم أنَّ ذلك داخل في باب الخيانة والغدر فكافى عليه بالانحراف والهجر فيجني على نفسه ما لا يتلافاه العذر ولا يقاومه الصبر والحازم من صبر على مضاضة التَّدلُّل والتمس العزَّ في استشعار التَّذلُّل فحينئذ يتمكَّن من وداد محبوبه ويظفر من هواه بمطلوبه.

قال الحسن بن هانئ[1]:

يا كثيرَ النَّوحِ في الدِّمنِ لا عليها بلْ على السَّكنِ
سُنَّةُ العشَّاقِ واحدةٌ فإذا أحببتَ فاستكنِ

وقال كثيِّر[2]:

---

[1] محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء ٢/ ٦٣٥

[2] الأغاني ٩ / ٣٩

أسيئي بنا أوْ أحسني لا مَلولةً لدينا ولا مقليَّةً إنْ تقلَّت

خليليَّ هذا رسمُ عزَّةَ فاعْقلا قلوصَيْكُما ثمَّ ابْكيا حيثُ حلَّت

وهؤلاء كلُّهم ومن جرى في هذا القول مجراهم إنَّما يتضاجرون على خلاَّنهم لثقلهم إيَّاهم عن عاداتهم ومنعهم إيَّاهم ما استعبدوه من مواصلاتهم لتغلُّب الحيرة على قلوبهم يحسبون أنَّ انحرافهم عن أحبابهم أقلُّ أذًى عليهم من الصبر لهم على محبَّاتهم ولو قد أنفذوا ما عزموا عليه من الفراق والهجر لشاهدوا ما يضطرُّهم إلى الرُّجوع بالصِّغر والتَّوسل إلى الصَّفح بالعذر

ولقد أحسن العباس بن الأحنف حيث يقول[1]:

لا بدَّ للعاشقِ من وقفةٍ تكونُ بينَ الوصلِ والصَّرْمِ

حتَّى إذا الهجرُ تمادى به راجعَ من يهوى علَى رغمِ

---

[1] الأغاني ٦ / ٣١٠

من طالَ سرورهُ قصرتْ شهورهُ

من صبر على الامتحان لمن يهواه على مثل ما ذكرناه كان خليقاً أن يبلغ أقصى مُناه وأهل هذه الحال الذين يحمدون الهوَى ويشكرونه ويصفون لذاذته للذين لا يعرفونه ويزرون على عيشٍ من لم يتطعَّم مذاقه ولم يُتعبَّد باسترقاقه ألم تسمع الَّذي يقول[1]:

إذا أنتَ لم تعشقْ ولم تدرِ ما الهوَى
فكنْ حجراً من يابسِ الصَّخرِ جلْمدا
فما العيشُ إلاَّ ما تلذُّ وتشتهي
وإنْ لامَ ذو الشَّنآنِ فيه وفنَّدا
تبعتُ الهوَى جُهدي فمن شاءَ لامني
ومن شاء آسى في البُكاء وأسعدا

---

[1] الأغاني ١٥ / ١٢٦

والكميت أنصف من هذا حيث يقول[1]:

ما ذاقَ بؤسَ معيشة ونعيمها فيما مضى أحدٌ إذا لمْ يعشق
الحبُّ فيه حلاوةٌ ومرارةٌ سائلْ بذلك من تطعَّمَ أوْ ذُقَ

فهؤلاء الذين قد سامحهم الدَّهر بصحابهم فاستطابوا المقام على حالهم ومن وصل إلى شيء نفسه تقاصرت عليه الأيام وراصدته بمكروهات الشهور والأعوام.

قال جميل بن معمر[2]:

يطولُ اليومُ لا ألقاك فيه وحولٌ نلتقي فيه قصيرُ
وقالوا لا يضرُّكَ نأيُ شهرٍ فقلتُ لصاحبي فلمنْ يضيرُ

يقول: إن السنة الكاملة إذا اتصل الالتقاء بيننا فيها، أستقصرها وأحرص على الاستزادة منها، التذاذاً بها وبعدا من الملال لها، وإن اليوم الواحد إذا حيل بيني وبينك فيه استطيله تقالياً له، وتفادياً منه، وكراهية لامتداده والناس يقولون لي: إن الشهر لا يجلب

---

[1] الجليس الصالح ص٢٤٢

[2] شرح ديوان الحماسة ص٩٤٧

عليك ضرراً، فقلت لصاحبي: فمتى يضير إذاً؟ استبعاداً للأجل المضروب.

ولو لم يصبر المحبُّ علَى امتحان إلفه إلاَّ بسمع مثل هذا من لفظه لكان ذلك حظّاً جزيلاً ودركاً جليلاً فكيف وحال الصَّفاء إذا ابتدأت بين المتحابَّين بالمشاكلة الطبيعية ثمَّ اتَّصلت بالحراسة عن الأخلاق الدَّنيئة ثمَّ عذبت بالرّعايات الاختياريَّة بلغت بهما الحال إلى حيث انقطعت بهم دونه الآمال وعلى أنَّ الحزم لمن سومح بالوصال ألا يرسل نفسه كلَّ الإرسال فإنَّ ذلك ربَّما دعا المحبوب إلى الملال وإن كان مقيماً على رعاية الحال.

ولقد أحسن القائل[1]:

عليكَ بإقلالِ الزِّيارةِ إنَّها تكونُ إذا دامتْ إلى الهجرِ مسلكَا
فإنِّي رأيتُ القطرَ يُسأمُ دائماً ويُسألُ بالأيدي إذا هوَ أمسكَا

---

[1] الجليس الصالح ص١٦٤

مَن كانَ ظريفاً فليكنْ عفيفاً

عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: مَن عشق فعفَّ فكتمه فمات فهو شهيد.

ولو لم تكن عفَّة المتحابَّين عن الأدناس وتحاميهما ما ينكر في عرف كافة النَّاس محرَّماً في الشرائع ولا مستقبحاً في الطَّبائع لكان الواجب على كلِّ واحد منهما تركه إبقاء ودّه عند صاحبه وإبقاء على ودِّ صاحبه عنده.

قال حمزة بن أبي ضيغم [1]:

وبتْنا خلافَ الحيِّ لا نحنُ منهمُ ولا نحنُ بالأعداءِ مُختلطانِ
وبتْنا يقينَا ساقطَ الطَّلِّ والنَّدى منَ اللَّيلِ بردَا يمنةٍ عَطرانِ
نذودُ بذكرِ اللهِ عنَّا غوَى الصِّبى إذا كادَ قلبانَا بنا يردانِ
ونصدرُ عن ريِّ العفافِ وربَّما سُقينا عليكِ النَّفسَ بالرَّشَفانِ

---

[1] الجليس الصالح ص١٠١

وقال العباس بن الأحنف[1]:

أتـأذنـونَ لصـبٍّ في زيـارتكمْ فعندكمْ شهواتُ السَّمعِ والبصرِ
لا يُضمرُ السُّوءَ إنْ طالَ الجلوسُ به عفُّ الضَّميرِ ولكنْ فاسقُ النَّظرِ

وأحسن من هذا قول عمر بن أبي ربيعة[2]:

نـظـرتُ إليـها بـالمحصَّبِ مـنْ منًى
ولِـي نـــظرٌ لـــولا التَّـحرُّجُ عـارمُ
فقـلتُ أشمسٌ أمْ مصـابيحُ بيعةٍ
بدتْ لكَ خلفَ السِّجفِ أمْ أنتَ حالمُ
بعيـدةُ مهـوَى القـرطِ إمَّـا لنـوفلٍ
أبـوها وإمَّـا عبـدُ شـمسٍ وهـاشمُ
طلبْـنا الصِّبَى حتَّى إذا مـا أصبْـنهُ
نـزعْـنا وهـنَّ المسـلمـاتُ الكـرائـمُ

---

[1] التذكرة الحمدونية ٦/ ٢٢٩

[2] العقد الفريد ٧/ ٥٦

وعن الأصمعي [1] أنَّه قال بينا أنا أطوف بالبيت إذا أنا بجارية متعلقة بأستار الكعبة وهي تقول:

لنْ يقبلَ اللهُ منْ معشوقة عملاً يوماً ووامقُها غضبانُ مهجورُ
وكيفَ يأجرُهَا في قتلِ عاشقها لكنَّ عاشقَها في ذاكَ مأجورُ

قال فقلت لها يرحمك الله أفي مثل هذا الموضع تنشدين هذا فقالت إليك عنِّي يا عراقيٌّ لا رهقك فقلت لها وما الحب فقالت هيهات جل والله عن أن يُحصى وخفي عن أن يُرى فهو كامن ككمون النار في حجرها إن قدحته ورى وإن تركته توارى ثمَّ أنشأت تقول:

إنسٌ غرائرُ ما هممنَ بريبة كظباء مكَّةَ صيدهنَّ حرامُ
يُحسبنَ من لين الحديث فواسقاً ويصدُّهنَّ عن الخنا الإسلامُ

ويُحكى أن أعرابياً خلا بصاحبته فقيل له ما كان بينكما فقال ما زال القمر يزيّنها فلما غاب زيّنته فوضعت كفِّي على كفِّها فقالت

---

[1] الظرف والظرفاء ص٩٢

مَهْ لا تُفسد فقلت والله ما يرانا إلاَّ الكواكب فقالت ويحك وأين مكوكبُها قال فارْفضضتُ والله عرقاً ولم أعد .

و دخل العباس بن سهل الساعدي على جميل وقد احتضر فقال له جميل بلِّغنا أتظنّ رجلاً عاش في الإسلام لم يزنِ ولم يسرق ولم يسفك دماً حراماً ناجياً من هول يوم القيامة قال العباس فقلت أي والله فمن ذلك قال إنِّي لأرجو أن تكونه قال فتبسَّمت وقلت أبعد إتيانك بثينة عشرين سنة فقال إنِّي في آخر يوم من أيام الدُّنيا وأول يوم من أيام الآخرة فلا نالتني شفاعة محمد صلى الله عليه وسلّم إن كنتُ حدَّثت نفسي بحرامٍ منها قطُّ عمَّا وراء ذلك قال ثمَّ مات من يومه .

-٩-

ليسَ منَ الظَّرفِ امتهانُ الحبيبِ بالوصفِ

من سامحته الأيام لمحابِّه ورُزق حسن الوفاء والمساعدة من أحبابه ما يجب عليه في حدود الظَّرف دون ما يجب عليه من رعاية حقوق الإلف أن يقابل نعم الله عليه بما يوجب المزيد فيها لديه فإن لم يفعل ذلك فلا ينبغي له أن يتعرض لأسباب المهالك وليعلم أنَّ وصف ما في صاحبه من الخصال المرتضاة مُغرى بمن علمها بالمشاركة له في هواه ولقد أحسن الَّذي يقول[1]:

ولستُ بواصفٍ أبداً خليلاً ... أُعرِّضهُ لأهواء الرِّجال
وما بالي أشوِّقُ عينَ غيري ... إليه ودونهُ سترُ الحجالَ
كأنِّي آمنُ الشُّركاءَ فيه ... وآمنُ فيه أحداثَ الرِّمالَ

وإذ قد دللنا على قبح وصف الخليل بما فيه من الخَلق والخُلق الجميل فلا حاجة بنا إلى دلالة على قبح الوصف لما حمل عليه نفسه من المسامحة بصاحبه والمسارعة إلى بلوغ محبَّته فإنَّ المحبوب ربما دعته

---

[1] محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء ٢/ ٢٥٧

الرأفة بمحبِّه أو الإشفاق عليه إلى أن يحمل نفسه على ما لا يوجبه حقُّ الهوَى عليه وعلى ما لم يوصله صاحبه منه وأن يدعه أليه تحقُّقاً بالرِّعاية لمن يهواه وتظرُّفاً بالسّياسة له إلى أكثر ما يتمنَّاه وإن لم يقع ذلك إلاَّ بالحمل على النَّفس والغضِّ منها فإذا كان وصف الخلقة الَّتي لا يتهيَّأ نقلها ولا يعاب بها صاحبها ليس بجميل كان وصف الخلائق الَّتي قد سومح فيها أحرى أن يكون غير جميل.

يُحكى أن رجلاً قام بحضرة معاوية فقال: قبَّح الله المجوس بلغني أن أحدهم يتزوج بأُمِّه والله لو أُعطيت عشرة آلاف درهم أن أفعل ذلك ما فعلته، فلمَّا انصرف قال معاوية: ما له أسخن الله عينه أترى لو زيد على ذلك كان يفعل، ولكن يُتلقَّى هذا الكلام من جميل باليدين ويحمل على الرأس والعينين إذا سمع كلام الشيخ امرئ القيس:

فلمَّا دنوتُ تسدَّيتُها ... فثوباً نسيتُ وثوباً أجُرْ

ولمْ يرنَا كالئٌ كاشحٌ ... ولمْ يُفشَ منَّا لذا البيت سرْ

وقدْ رابَني قولُها يا هناهُ ... ويحكَ ألحقتَ شراً بشَرْ[1]

---

[1] خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ١/ ٣٧٥

فما أدري من أي أمريه أعجب أمن خشية في نفسه أم من جهله بأمره يفرح بأن لم يرهم كاشحٌ ولم يفش لهم في البيت سرٌّ وما عسى الكاشح لو رآهم إن كان يصنع بهم هل كان يستطيع أن يشيِّع عليهم إلاَّ بعض تشييعهم على أنفسهم.

obeikandl.com

-١٠-

سوءُ الظَّنِّ مِنْ شدَّةِ الضَّنِّ

قال الزبير بن بكار: قال جميل بن معمر: ما رأيت مصعباً يختال بالبلاط إلاَّ عرف على بثينة وهي بالحباب وبينهما مسيرة ثلاث[١].

وقال العباس بن الأحنف[٢]:

لم ألقَ ذا شجنٍ يبوحُ بحبِّه إلاَّ ظننتُك ذلك المحبوبا
حذراً عليك وإنَّني بك واثقٌ ألا ينالَ سوايَ منكِ نصيبا

وقال بشار بن برد[٣]:

كأنَّ فؤادَهُ كرةٌ تنزَّى حذارَ البينِ لو نفعَ الحذارُ
يُروِّعنا السِّرارُ بكلِّ شيءٍ مخافةَ أن يكونَ به السِّرارُ

---

[١] عيون الأخبار ٤/ ٢١

[٢] العقد الفريد ٨/ ١٣٠

[٣] زهر الآداب وثمر الألباب ٣/ ٨٠١

قَالَ أَحْمَد بْن يحيى[1]:

ومَا فِي الأَرْض أشقي من محبٍ وَإن وجد الْهوى حلوَ المذاقِ
تــرَاهُ بــاكــيا أبــدا حَـزينًـا مَخَافَـة فـرقة أو لاشتيــاق
فيـبكي إن نأوا شـوقاً إِلَيْـهِم ويبكي إن دنوا خوف الْفِرَاق
فتــسخن عينـه عِنْـد التنائي وتسـخن عينـه عِنْـد التلاق

وهذه المكاره كلُّها أثمار تلك الملاذّ الَّتي قبلها وذلك أن من هويَ إنساناً فإنما قصاره حين يهواه أن يعيد نظره إليه فيروى من شخصه ويستمتع من لفظه فإذا تهيَّأ ذلك له ازداد وجده به أضعافاً على ما كان في قلبه ثمَّ تدعوه نفسه بعد ذلك إلى كثرة التَّلاقي والمواصلة وتنبسط للمسائلة والمشاورة وهو في كل هذه الأحوال مشغول بحظوظ نفسه غير فارغ معها لصبابة غيره بل يحبُّ أن يكون إلفه سمحاً بالمواصلة لمن علم أنَّه يودُّه ليكون ذلك سبباً له إلى مواصلته وتسهيلاً له السَّبيل إلى معاشرته فإذا تمكَّن ودُّه من نفس محبوبه فاستشعر الوفاء له ودفع قياده إليه فلم يعترض شيء من أمره عليه لكسبه ذلك ضنّاً به وصيانة له.

---

[1] الأمالي للزجاجي ص٤٤

إذا ازدادَ رعـياً للـهوى زِدْتهُ هوًى

وضنِّي بـه مـقدارَ هذيـن يضعُفُ

قفـوه أمني زائـدٌ في تخوُّفي ولا حـظَّ

لـي في أن يـزولَ التَّـخوُّفُ

فلا يتشاغلْ عاذلٌ بنصيحتي فمثلي

عـلَى إرشـادهِ لا يـوقَّـفُ

ولا يـرْثِ لي في ذلَّـتي وتواضُعي

فإنِّـي بـهـذا الـذُّلِّ أزهى وأشرفُ

فما ظنُّك بترادف حالين كلٌّ واحـدة منهمـا سـبب لصـاحبتها متى يكون انقضاؤهما أم كيف يتوهَّم زوالهما لا سيَّما وإحـداهما قد كانت قوَّتهـا في نفسـها منميـةً لهـا قبـل أن تبتـدئ الأخـرى في معونتها فإذا انتهت الحال إلى حيث وصفنا فرغ المحـبُّ حينئـذ مـن المطالبة بحظوظ نفسه وتشاغل بالمطالبـة بحقـوق إلفـه فـأنف لـه مـن معاشرة غيره بل صانه وأشفق عليه من مخالطتـه هـواه وعـاد إلى مـا كان يحسب له به مكرمةً من برِّه به فجعله عليه هُجنة وأوهـم نفسـه

أنَّ ذلك الَّذي ناله غيره ممنوع من كلِّ من سأله ألم تسمع الَّذي يقول:

فلا تُكثري قولاً منحتك وُدَّنا فقولُك هذا في الفؤاد مُريبُ
تَعُدِّينَ ما أوليتني منكِ نائلاً وللقابسِ العجلانِ فيكِ نصيبُ[1]

وفي نحو هذا المعنى يقول الآخر[2]:

تمتَّعْ بها ما ساعفَتْكَ ولا تكنْ عليكَ شجاً تُؤذيكَ حينَ تبينُ
وإنْ هي أعطتكَ اللِّيانَ فإنَّها لآخرَ من خُلاَّنها ستلينُ

فحينئذ يظنُّ المحبُّ ما لا يخشاه ويتمنَّى ما لا يهواه ويفسد عليه أمر دينه ودنياه وهذه حال الوله الَّذي ذكرناه.

يُسيءُ من كثرةِ الظَّنِّ الظُّنونَ بها حتَّى يظنَّ ظنوناً ليسَ يخشاها

ومرتبة العشق الَّتي هي في هذا الطَّريق إلى هذه المرتبة توجب على المحب طاعة المحبوب في كلِّ ما أحبَّه حتَّى لا يعصيَ له أمراً ولا يُقبِّح له فعلاً.

---

[1] محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء ٢/ ٢٦٣

[2] العقد الفريد ٧/ ١٣٧

ويُحكى عن الحسن بن سهل الكاتب أنَّه قال: أما أنا فإذا أحببت إنساناً نظرت إلى فعله ففعلت مثله فإنه إن أبغضني أبغض نفسه فإذا ابتدأ أهل العشق يرتفعون عن هذه الحال تكشَّف لهم عوار هذه الأفعال حالاً بعد حال.

وربَّما ضعف الخارج عن حال العشق الَّتي توجب طاعة المحبوب على المحب إلى حالة الوله التي توجب الاعتراض عليه لفرط الميل منه إليه فيرجع من قريبٍ وينقاد صاغراً إلى كلِّ ما يريده المحبوب.

والعاشق ما دامت حال العشق مالكة يتوهَّم ألاَّ غاية بعدها ولا رتبة فوقها ويرى أن اعتراض المحب على محبوبه إنَّما هو من نقض حاله في قلبه وليس الأمر بحيث عليَّ بل هو بضده.

ولقد أحسن علي بن الرومي وقوله[1]:

يا أخي أينَ ريعُ ذاكَ الإخاء أينَ ما كانَ بينَنَا منْ صفاء
أنتَ عَيني وليسَ مِنْ حقِّ عَيْني طبقُ أجفانها علَى الأقذاءِ

---

[1] أحسن ما سمعت ص٢١

-١١-

مَنْ وفَى الحبيبُ هانَ عليهِ الرَّقيبُ

وإنَّما يغلظ أمر الرقيب على من يمتحن بمفارقة الحبيب فأما من غلبه الفراق وملكه الإشفاق وأذاع سره الاشتياق قلَّ اكتراثه بمن يرتقبه بل سهل عليه ألاّ يعاين من يحبّه إذا وثق بقربه منه وأمن من إعراضه عنه وربَّما كانت غيبة الحبيب أيسر من حضوره مع الرقيب وهذا شيء تختلف فيه الآراء علَى حسب غلبات الأهواء.

قال أبو تمام[١]:

ما شئتَ منْ منطق أديبِ ... فيه ومنْ منظر أريبِ
لَمَّا رأى رقبةَ الأعادي ... علَى معنًّى به كئيبِ
جرَّدَ لي منْ هواهُ نُصحاً ... صارَ رقيباً علَى الرَّقيبِ

وقال الرقاشي[٢]:

---

[١] عيون الأخبار ٤/ ٨٥

[٢] مصارع العشاق ١/ ٩١

إذا نحنُ خفْنا الكاشحينَ فلمْ نطقْ

كلاماً تكلَّمنا بأعيُنِنا سرَّا

فنقضِي ولمْ يُعلمْ بِنا كلَّ حاجةٍ

ولمْ نظهرِ الشَّكوى ولمْ نهتكِ السِّترا

ولو قذفتْ أحشاؤُنا ما تضمَّنتْ

منَ الوجدِ والبلوَى إذنْ قذفتْ جمرا

فصاحبُ هذا الشِّعر البائس مغترٌّ بالزَّمان جاهل بصروف الأيام يتبرَّم بالرَّقيب مع مشاهدة الحبيب وهو لا يعلم أن هذه الحال تتقاصر عنها الآمال وتنقطع دونها الآجال ولكن من لم ينكبه الفراق ولا الهجر ولم يعترض إلى الخيانة والغدر حسب أن الرَّقيب هو منتهى كيد الدَّهر وظنَّ أنَّه قد امتُحن بما لا يقوم له الصَّبر.

من مُنع من كثير الوصال قنع بقليل النَّوال

قال ذو الرمّة[١]:

ألِمَّا بميٍّ قبلَ أنْ تطرحَ النَّوى
بنا مطرحاً أوْ قبلَ بينٍ يُزيلُها
ولو لمْ يكنْ إلاَّ معرَّسُ ساعةٍ
قليلاً فإنِّي نافعٌ لي قليلُها
خليليَّ عُدَّا حاجتي من هواكُما
ومن ذا يُداوي النَّفسَ إلاَّ خليلُها

وقال جميل[٢]:

ويقُلنَ إنَّكَ قدْ رضيتَ بباطلٍ منها فهلْ لكَ في اعتزالِ الباطلِ

---

[١] ديوان ذي الرمة: ٩١٣

[٢] الشعر والشعراء ١/ ٥٠٠

ولَباطلٌ مِمَّنْ أحبُّ حديثَهُ أشهى إليَّ مـنَ البغيـضِ البـاذلِ

ولـرُبَّ عـارضةٍ علينا وصلَها بالجدِّ تخلطُـهُ بقـولِ الهازلِ

فأجبتُها بالقولِ بعدَ تستُّرٍ حُبِّي بُثينةَ عـن وصـالكِ شـاغلي

لـو كـان في قلـبي كقدرِ قُلامةٍ فضلٌ وصلْتُكِ أوْ أتتكِ رسائلي

أما هذا فقد دلَّنا بغاية جهده على شدَّة تمكُّنها من قلبه وأخبرنـا مع ذلك في شعره أنَّه لو تهيَّأ خلاص شيء من حبِّه من يدها لصرفه إلى غيرها وهذه حـال لا تُرضـي أهـل الوفـاء ولا يستعملها أهـل الصَّفاء.

وإنِّـي لأرضى منـكِ يا ليـلُ بالَّذي

لـوُ اخـبرَهُ الواشـي لـقرَّتْ بـلابـلُهْ

بـلى وبـأنْ لا أستطيـعَ وبالْمنى

وبالـوعدِ حتَّى يسـأمَ الوعـدَ آملُـهْ

وبالنَّظرةِ العَجلى وبالحـولِ تنقضي

أواخـرهُ لا تـلتـقي وأوائـلُـهْ

وهذه لَعمري قناعة شديدة تدلُّ على أن وراءها ذلَّة وكيدة لأن من يتهيَّأ له من يهواه لا يقنع بأن لا يراه وبأن يعده وعده إلاَّ يطالبه بوفائه ولعمري إنَّ هذه الحال تقرُّ عين المعادي وتسخن عين الموالي إلاَّ أنَّه وإن كان قد بالغ في القناعة فإنه قد التمس التعلُّل بالوعد وبتأميل اللقاء على البعد ومن قنع بترك اللقاء وأقام على حال الوفاء كان أتمَّ حالاً.

قال أبو صخر الهذلي[1]:

ويقرُّ عيني وهيَ نازحةٌ ما لا يقرُّ يَمينَ ذي الحلمِ
إنِّي أرَى وأظنُّ أنْ سترَى وضحَ النَّهارِ وعاليَ النَّجمِ

وهذه لعمري قناعة مفرطة في بابها وإن كانت مقصِّرة عن حال التَّمام لأن صاحب هذه الحال يستجلب بُعداً لنفسه نسيم الوصال.

وكلُّ هذه الأحوال ناقصة عن حدِّ التَّمام على عجب أصحابها بها وافتخارهم بذكرها وتوهُّمهم أن قد تهيَّأ لهم على أنفسهم ما لم يتهيَّأ لغيرهم من صبرها لأحبابهم على الحظِّ اليسير من نوالهم وأتمُّ من هؤلاء في الحال وأحسن صبراً على قليل النوال بل على

---

[1] محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء ٢/ ١٣٤

ترك جميعه من رضي من النَّيل بسلامة محبوبه وكان ذلك نهاية مطلوبه.

obeikandl.com

مَنْ حُجبَ منَ الأحبابِ تذلَّل للحجَّابِ

أصل الحجاب يكون من جهتين إمَّا أن يقع من المحبوب اختياراً وإمَّا أن يوقعه غيره به اضطراراً فأمَّا الاضطرار فقسم واحد وهو صون المحبوب عن المحجوب وأما الاختيار فينقسم على ضروب فربَّما كان امتحاناً للمحبِّ من المحبوب وربَّما كان خوفاً عليه من الرَّقيب وربَّما كان استدعاءً للزيادة في الحال وربَّما كان إشفاقاً على النَّفس من العذَّال وتصوُّناً عن قبيح المقال وربَّما كان على جهة الضَّجر والملال وهذا هو شرُّ الأحوال .

قال قيس بن ذريح[1]:

فإنْ يحجبُوها أو يحلْ دونَ وصلها
مقالةُ واشٍ أوْ وعيدُ أميرِ
فلنْ يحجبُوا عينيَّ مِنْ دائمِ البُكا

---

[1] التذكرة الحمدونية ٦/ ١٠١

ولـنْ يُذهبُوا ما قدْ أجنَّ ضميرِي

وقال أبو تمام الطائي [1]:

صبراً علَى المطلِ ما لمْ يتلهُ الكذبُ
فللخطـوبِ إذا سـامحتُها عـقبُ
ليسَ الحجابُ بمقصٍ عنكَ لي أملاً
إنَّ السَّـماءَ تُـرجَّى حيـنَ تحتجبُ

وقال ابن أبي طاهر [2]:

حُجبتُ وقدْ كنتُ لا أُحجبُ وأُبـعدتُ عنـكَ فما أقربُ
ومـا ليَ ذنـبٌ سـوَى أنَّني إذا أُغضـبتُ لا أغضـبُ
وأنْ لـيسَ دونكَ لي مطلبٌ ولا دونَ بـابكَ لـي مهربُ
فليتَـكَ تـبقَى سليمَ المحلّ وتأذنُ إنْ شئتَ أوْ تَحجبُ

---

[1] ديوان أبي تمام ٢٢

[2] دمية القصر وعصرة أهل العصر ١/ ٣٢٩

في هذه الأبيات ما يدلُّ على ضجر من المحجوب وقلَّة صبر منه على نازلات الخطوب ولعمري كان الضَّجر على ما لا يصلح منه الانتصار ولا ينبسط عليه الاقتدار مهجِّناً لمظهره ومزرياً بمستشعره فإنَّ من تسامح له الزَّمان وتغافلت عنه صروف الأيَّام فوقع في مرعى خصيب وظفر بما لم يأمله المحبوب ثمَّ عطفت عليه الأيَّام عطفة الحنق المغتاظ فاسترجعت ما أعطته واستردَّت ما أعارته لغير معنَّف على الحيرة والتَّخليط والتَّأسُّف على ما قدَّم من التَّفريط.

ولا ينبغي للعاقل أن يفرط في الجزع من غير الأيَّام فإنَّ الدَّهر حالٌ بعد حال وكما كان اتِّصال السُّرور ذريعة إلى وقوع المحذور فكذلك ربَّما كان وقوع المكروه من أقوى الأسباب لرجوع المحابِّ.

ولقد أحسن كل الإحسان أبو تمام حيث يقول:

قدْ ينعمُ اللهُ بالبلوَى وإنْ عظُمتْ ويبتَلِي اللهُ بعضَ القومِ بالنِّعمِ

و لا ينبغي للعاقل أن يفرط في الجزع من غير الأيَّام فإنَّ الدَّهر حالٌ بعد حالٍ وكما كان اتِّصال السُّرور ذريعة إلى وقوع المحذور

فكذلك ربَّما كان وقوع المكروه من أقوى الأسباب لرجوع المحابِّ.

obeikandl.com

مَنْ مُنعَ منَ الوصولِ اقتصرَ علَى الرَّسولِ

ذكروا أنَّ جميلاً وكثيِّراً التقيا فقال جميل لكثيّر بأني أريد أن تصير إلى بثينة فتأخذ لي عليها موعداً، فقال له: ويحك من عند عمِّها جئت وغاشية أهلها كثير قال له جميل: إنَّ الحيلة تأتي من وراء ذلك فقال له كثيّر: فأعطني علامة تعرفها قال جميل: آخر يوم التقينا كنَّا في وادي الدَّوم فأصاب ثوبها شيء من ورق الشَّجر فغسلته فمضى كثيّر إلى عمِّها فقال له: ما الَّذي ردَّك؟

فقال: أبيات صنعتها في عزَّة أحببت أن تسمعها قال: وما هي؟ فأنشأ يقول:

أقولُ لها يا عزَّ أرسلَ صاحبِي
علَى نأيِ دارٍ والموكَّلُ مُرسلُ
بأنْ تجعلِي بيني وبينكِ موعداً
وأنْ تأمُريني ما الَّذي فيهِ أفعلُ

أمـا تـذكرينَ العهدَ يـومَ لقيـتكمْ

بأسفلِ وادِي الدَّومِ والثَّوبُ يُغسلُ

فلمَّا سمعت ذلك بثينة قالت: إخسأ قال لها عمُّها: مـا الَّـذي أخسأت يا بثينة؟ قالت: كلباً كـان يعترينـا لـيلاً وقـد رأيتـه نهـاراً فانصرف كثيّر إلى جميل وعرَّفه أنَّا قد ذكرت اللَّيل فصر إليها[1].

[1] المحاسن والأضداد ص٢٩٢

-١٥-

مَنْ أحبَّه أحبابهُ وشَى بهِ أترابهُ

مكايد الوشاة كلُّها تنقسم على ثلاثة أقسام فسعاية المتحابَّين إلى غيرهما وسعاية المحبّ إلى محبوبه وسعاية المحبوب إلى محبِّه فهذه عند كثير من الأدباء أضعف المكايد أثراً وليس الأمر كذلك ولا هو أيضاً بضدٍّ ذلك ولكنَّه محتاج إلى نقصان .

أمَّا العشَّاق والمتيَّمون فلا يقبلون قول الوشاة بل لا يسمعونه لأنَّ الثِّقة منهم بأحبابهم ماحيةٌ لقول من وشى بهم وأمَّا أهل الوله المدلَّهون فيقبلون ما لا يسمعون فضلاً عمَّا يسمعون لما قدَّمنا من وصفهم وغلبة الظَّنِّ على أنفسهم ونحن نذكر إن شاء الله من كلِّ ما قيل في ذلك طرفاً.

قال الأحوص[1]:

---

[1] خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ٢/ ٤٩

يا بيتَ عاتكةَ الَّذي أتعزَّلُ حذرَ العدى وبه الفؤادُ موكَّلُ
أصبحتُ أمنحُكَ الصُّدودَ وإنَّني قسماً إليكَ معَ الصُّدود لأميلُ
وتجنُّبي بيتَ الحبيبِ وذكرَهُ أُرضي البغيضَ به حديثٌ مُعضِلُ
هلْ عيشُنا بكَ في زمانكَ راجعٌ فلقدْ تفحَّشَ بعدكَ المتعلِّلُ
ولوَ انَّ ما عالجتُ ليـنَ فُؤاده فقَسَا استُلينَ به للانَ الجندلُ

obeikandl.com

-١٦-

من لم يعاتب على الزَّلّة

فليس بحافظٍ للخُلّة

المعاتبة على الذُّنوب من المحبِّ والمحبوب قد تجري على ضروب فمنها معاتبة استتاب تقع على الارتياب ليزول الشَّكّ بما يجري فيها من الجواب ومعاتبة تقع بعد اليقين يقصد بها العاتب إلى أن يعلم هل من ذلك الذَّنب عذر أم هو داخل في باب الغدر ومنها معاتبة توقيف تجري على جهة التَّعنيف وهذه حال لا تكاد تجري بين المتحابَّين إلاَّ عند انقطاع الحال بينهما أوْ عند ضجرة شديدة تلحقهما أوْ تلحق أحدهما وأحمد أحوال العتاب صيانة الحال عن أن يجري فيها شيء من الاختلال بقيا على المذنب لا بقيا على المؤنِّب وترك جميع المعاتبة يدخل في باب الإهمال والموقِّف على كلِّ ذنب يوجب قطع المواصلة واتّصال العتب.

قال البحتري[1]:

وكنتُ إذا استبْطأتُ وُدَّكَ زرتهُ ... بتفويفِ شعرٍ كالرِّداءِ المُحبَّرِ

عـتابٌ بـأطرافِ القوافي كـأنَّهُ ... طِعانٌ بأطـرافِ القنا المُتكسِّرِ

obeikandl.com

[1] التذكرة الحمدونية ٥/ ٤٠٤

-١٧-

من عاتب علَى كلِّ ذنبٍ أخاه فخليقٌ أن يملَّه ويقلاه

أنشد أبو العباس أحمد بن يحيى[١]:

إذا أنتَ لم تستقبلِ الأمرَ لم تجدْ ... بكفَّيكَ في إدباره مُتعلَّقا
إذا أنتَ لم تتركْكَ أخاكَ وزلَّةً ... إذا زلَّها أوشكتُما أَن تفرَّقا

و إنَّما يتركون معاتبة أحبابهم إشفاقاً من تغيُّرهم لهم وانحرافهم عنهم فإن كان ما تركوا المعاتبة عليه فعساه يرجع على أصحابهم فقد أساؤوا إذْ لم ينبِّهوهم على موضعه وآثروا منفعة أنفسهم على مصالح أحبَّتهم وإن لم يكن ذنباً ألا يتركوه فقد كان الأجمل بإخوانهم ألا يذكروه بل كان من حقِّ أحبابهم عليهم ألا يتوهَّموه فضلاً عن أن ينطقوا به لأوليائهم أوْ يجرونه على خواطر أعدائهم وسبيل مثل هذا أن يعترف به المحبوب مبتدئاً بذكره

---

[١] الحماسة البصرية ٢/ ٣٤

ومتنصِّلاً من فعله فلا يصغي المحبّ ليفهمه ولا يوهم صاحبه أنَّه خطر على وهمه.

ولقد أحسن الَّذي يقول:

إذا شئتَ أن تُدعى كريماً مُكرَّماً ... حليماً ظريفاً ضاحكاً فطناً حُرَّا

إذا ما بدتْ من صاحبٍ لكَ زلَّةٌ ... فكنْ أنتَ مُحتالاً لزلَّتِه عُذرا

هذا فيما كان من الجنايات لا يعيد علَى المحبوب في نفسه ضرراً ولا يبيِّن على غير المحبّ أثراً وأمَّا ما كان معيداً على المحبوب عاراً فلا بدَّ من تنبُّهه عليه اضطراراً وفي هذا المعنى يقول مخيس بن أرطاة التميمي[1]:

عرضتُ نصيحةً منِّي ليَحيى ... فردَّ نصيحتي والنُّصحُ مرُّ

وما بيَ أن أكونَ أعيبُ يحيى ... ويحيى طاهرُ الأخلاق برُّ

ولكن قد أتاني أنَّ يحيى ... يقالُ عليه في نفعاءَ شرُّ

فقلتُ له تجنَّبْ كلَّ شيءٍ ... يُعابُ عليكَ إنَّ الحرَّ حُرُّ

---

[1] الذخائر والعبقريات ٢/ ٨٣

بُعد القلوب علَى قرب المزار

بُعد القلوب علَى قرب المزار أشدُّ من بعد الدِّيار من الدِّيار الهجر على أربعة أضرب هجر ملال وهجر دلال وهجر مكافاة على الذُّنوب وهجرٌ يوجبه البغض المتمكِّن في القلوب فأمَّا هجر الدَّلال فهو ألذُّ من كثير الوصال وأما هجر الملال فيطلبه من الأيَّام واللَّيالي إما بنأي الدَّار وإمَّا بطول الاهتجار.

وفي مثل ذلك يقول الشاعر:

لا تجزعَنْ من هجر ذي ملَّة أظهرَ بعدَ الوصل هجرانا
يملُّ هـذا مثلَ مَا ملَّ ذاً فيرجعُ الوصلُ كما كانا

وأما الهجر الَّذي يتولَّد عن الذَّنب فالتَّوبة تخرجه عن القلب وأما الهجر الَّذي يوجبه البغض الطَّبيعي فهو الَّذي لا دواء له وقد قال الجاحظ لكلِّ شيء رفيقٌ ورفيق الموت الهجر وليس الأمر كما قال بل لكلِّ شيءٍ رفيقٌ ورفيق الهجر الموت.

ألم تسمع قول ذي الرمة:

سألتُ ذوي الأهواء والنَّاس كلَّهُمْ كُلَّ فتًى دانٍ وآخرَ ينـزحُ
أتُقرحُ أكبادُ المحبِّينَ كالذي أرى كبدي منْ حبِّ ميَّةَ تُقرحُ
لئنْ كانتِ الدُّنيا عليَّ كما أرى تباريحَ من ميٍّ فلَلْموتُ أرْوحُ

ويُحكى عن سفيان بن عيينة أنَّه قال: بينا أنا بالكعبة إذ رأيتُ أبا السَّائب المخزومي متعلِّقاً بأستار الكعبة وهو يقول:

يا هجرُ كُفَّ عنِ الهوَى ودعِ الهوَى للعاشقينَ يطيبُ يا هجرُ
ماذا تريدُ منَ الَّذينَ جُفونُهمْ قرحَى وحشوُ صدورهمْ جمرُ
وسوابقُ العَبرات بينَ خدودهمْ درٌ تفيضُ كأنَّها القطرُ
متحيِّرينَ منَ الهوَى ألوانهمْ ممَّا تكنُّ صدورهمْ صفرُ

قال: فقلتُ يا أبا السَّائب في مثل هذا الموضع تُنشد مثل هذا؟
فقال: إليك عنِّي يا أبا محمد فوالله للدُّعاءُ لهم في مثل هذا الموضع أفضل من حجةٍ وعمرةٍ.[1]

---

[1] الظرف والظرفاء ص٨٩

-١٩-

ما عتبَ منِ اغتفرَ ولا أذنبَ منِ اعتذر

المعتذر لا ينفكُّ من إحدى حالين إمَّا أن يكون صادقاً أو كاذباً فإن كان صادقاً فعذره مقبول وإن كان كاذباً فإنه لم يتجشَّم مضاضة الكذب في نفسه إلاَّ لنفاسة صاحبه في صدره ومن كان بهذه الحال قُبل عذره بل وجب شكره.

وقد قال البحتري[1]:

اقبلْ معاذيرَ مَنْ يأتيكَ معتذراً إنْ برَّ عندكَ فيما قالَ أو فجَرَا فقدْ أطاعكَ مَنْ يُرضيكَ ظاهرهُ وقدْ أجلَّكَ مَنْ يعصيكَ مُستترا

---

[1] العقد الفريد ٢/ ١٨

-٢٠-

إذا ظهرَ الغدرُ سهُل الهجرُ

العلة في سهولة الهجر عند ظهور الغدر ضربٌ من المكروه وكلٌّ مكروه فبعد النَّفس عنه خيرٌ لها من القرب منه وعلى أنَّ نفس المحبِّ إذا استيقنت بالغدر لم ترضَ بمقاومة الهجر لأنَّ في الهجر ضربٌ من التَّأديب وضربٌ من الانتقام والنَّفس المرَّة لا تعبأ بمن غدر بها ولا تستصلحه بمعاتبة ولا ترصده بمعاقبة بل تخلِّي فكرها عن ذكره وتصون خواطرها عن الخوض في أمره.

يا قلبُ قدْ خانَ مَنْ كلفتَ بهِ ... فخلِّ عنكَ البكاءَ في أثرهْ

ومن النَّاس مَن تضعف قواه عن هذه الحال فلا يسأل عمَّا يصير إليه من النَّكال وكلُّ ذلك على حسب التَّوفيق والخذلان نسأل الله خير عواقب الأمور ونستكفيه كلَّ مهمٍّ ومحذور.

وقال امرؤ القيس [1]:

---

[1] ديوان امرئ القيس ص٩٧

إذا قلتُ هذا صاحبٌ قد رضيتهُ وقرَّتْ به العينانِ بدَّلتُ أخرا

وذلك أنِّي لمْ أثقْ بمصاحبٍ منَ النَّاسِ إلاَّ خانَني وتغيَّرا

ويُحكى أن نصيباً أتى إلى صاحبته فدفع الباب ليدخل إليها فرأى عندها فتًى تحدِّثه فقالت له: ادخل يا أبا محجنٍ فأنشأ يقول:

أراكِ طَموحَ العينِ مذَّاقةَ الهوَى لكلِّ خليلٍ منكِ وصلٌ مُطرَّفُ

متى تجمَعِي ردفينِ لا أكُ منهما فهُبِّي بفردٍ لستُ ممَّنْ يُردَّفُ

ثمَّ ترك الباب ولن يسدَّه وانصرف.

وكانت بالعراق قينة، وكان أبو نواس يختلف إليها، فتظهر له أنها لا تحب غيره؛ وكان كلما جاءها وجد عندها فتى يجلس عندها ويتحدث إليها؛ فقال فيها[1]:

ومُظهرةٍ لخلق الله عشقاً وتُلقَى بالمحبَّة والسَّلامِ

أتيتُ فؤادَها أشكُو إليه فلم أخلصْ إليه منَ الزِّحامِ

فيا مَنْ ليسَ يُقنعهُ خليلٌ ولا ألفا خليلٍ كلَّ عامِ

أراكِ بقيَّةً منْ قومِ موسى فهمْ لا يصبرونَ علَى طعامِ

---

[1] العقد الفريد ٧/ ٦٩

وقال العباس بن الأحنف[1]:

كتبتْ نلومُ وتستريبُ زيارَتي ... وتقولُ لستَ لنا كعهد العاهد
فأجبتُها ومدامعي منهلَّةٌ ... تجري علَى الخدَّين غيرَ جوامد
يا عتبُ لمْ أهجركمُ لملالة ... حدثتْ ولا لمقال واشٍ حاسد
لكنَّني جرَّبتكمُ فوجدتكمُ ... لا تصبرونَ علَى طعامٍ واحد

أمَّا سلوُّ المحبّ عمَّن غدر به فغير معيب عليه إذ ليس ذلك مفوَّضاً إليه وإنَّما يوجبه نفور النَّفس عمَّن خالف شكلها كما توجب المحبَّة سكون النَّفس إلى شيء شاكل طبيعتها وأمَّا تشنيعه بالغدر على محبوبه فإنَّ ذلك لعمري قبيحٌ وما على من سلا عن إلفه أن يضمر ذلك في نفسه ولا يقصُّ على غيره ما ظهر له من سوء فعله فإن ظهر منه على ترك المواصلة عارض في ذلك بضربٍ من المجاملة.

---

[1] نشوة السكران ص٤٥

-٢١-

مَنْ راعهُ الفراقُ ملكهُ الاشتياقُ

التَّرويع بالفراق هو السَّهم الَّذي لا يعدل عن مقاتل العشَّاق من رمى به من المحبوبين أصاب ومن دُعي به من المحبِّين أجاب وربَّما ولعت نفوس العشَّاق محاذرة وقوع الفراق عن غير سبب يوجبه إظهار الإشفاق وتلك حالٌ لا يتهيَّأ معها وصالٌ.

وفي نحو ذلك يقول البحتري[1]:

حبيبٌ سرَى في خيفةٍ وعلَى ذُعرِ
يجوبُ الدُّجى حتَّى التقينا علَى قدرِ
وشككتُ فيه مِنْ سرورٍ خلتُهُ
خيالاً أتى في النَّومِ مِنْ طيفهِ يسري

وعلى أنَّ من العشَّاق من يتحاقر روعات الفراق وذلك إمَّا لما ناله من مضاضة هجرٍ أو مواقعة غررٍ وإمَّا لطغيان النَّفس ونشاطها

---

[1] الموازنة ٢/ ١٨٢

وانبساطها في محابِّها واستظهارها بغرَّة الجهل على أحبابها ولمن كان بهذه الخلل باب مفردٌ ووصفٌ مجرَّدٌ.

وأكثر استظهار خوف الفراق إنَّما هو على المتيَّمين والعشَّاق الذين استغرقهم الضَّعف بأحبابهم وجرت خلائق أحبَّتهم على نهاية محلِّهم فآمالهم مقصورة إلى الحذر من زوالهم فأمَّا من قد خرج عن حدود العشَّاق والمتيَّمين إلى مرتبة المولَّهين فإنَّ حذاره من الخيانة والغدر يشغله عن محاذرة الفراق والهجر.

ذكر أبو مالك الرَّاوية أنَّه سمع الفرزدق يقول أبقَ غلامان لرجل من بني نهشل يقال له الخضر قال فخرجت في طلبهما وأنا على ناقة لي عيساء[1] أريد اليمامة فلما صرت في ماء لبني حنيفة ارتفعت لي سحابةٌ فرعدت وبرقت وأرخت عزاليها فعدلت إلى بعض ديارهم وسألتهم القرى فأجابوا فدخلت الدَّار وأنخت النَّاقة وجلست تحت ظلالهم من جريد النَّخل وفي الدَّار جويريةٌ سوداء إذْ دخلت الدَّار جاريةٌ كأنَّها فلقة قمر وكأنَّ عينيها كوكبان دريَّان فسألت السوداء لمن هذه العيساء فقالت لضيفكم هذا فعدلت إليَّ

---

[1] بيضاء

فقالت السَّلام عليك فقلت وعليك السَّلام فقالت لي من الرِّجل فقلت من بني حنظلة فقالت من أيِّ بني حنظلة قلت من بني نهشلٍ قالت فأنت الَّذي يقول فيك الفرزدق:

إنَّ الَّذي سمكَ السَّماءَ بنى لنا بيتاً دعائمهُ أعزُّ وأطولُ
بيتاً زُرارةُ مُحتبٍ بفنائهِ ومُجاشعٌ وأبو الفوارسِ نهشلُ

قال قلت نعم فتبسَّمت وقالت فإنَّ ابن الخطفى جريرٌ هدم عليه بيته هو الَّذي يقول:

أخزى الَّذي رفعَ السَّماءَ مُجاشعاً وبنى بناءَكَ بالحضيضِ الأسفلِ
بيتاً يُحمَّمُ فيكُمْ بفنائهِ دنسٌ مقاعدهُ خبيثُ المدخلِ

قال فأعجبتني فلمَّا رأت ذلك في وجهي قالت إلى أين تؤمُّ قلت اليمامة قال فتنفَّست الصُّعداء ثمَّ قالت ها هي تلك أمامك ثمَّ أنشأت تقول:

تُذكِّرني بلاداً خيرُ أهلي بها أهلُ المروءة والكرامةْ
ألا فسقى المليكُ أجشَّ صوبٍ يدرُّ بسحِّه تلكَ اليمامةْ
وحيَّى بالسَّلامِ أبا نُجيدٍ فأهلٌ للتَّحيَّة والسَّلامةْ

قال فأنست بها فقلت أذات خدنٍ أم ذات بعلٍ فأنشأت تقول:

إذا رقدَ الخليُّ فإنَّ عمراً ... تُؤرِّقهُ الهمومُ إلى الصَّباحِ
تُقطِّعُ قلبهُ الذِّكْرى وقلبي ... فلا هو بالخليِّ ولا بصاحِ
سقى اللهُ اليمامةَ دارَ قومٍ ... بها عمرٌو يحنُّ إلى الرَّواحِ

قال فقلت لها من عمرٌو فأنشأت تقول:

فإنْ تكُ ذا قُبول إنَّ عمراً ... هوَ القمرُ المضيءُ لمُستنيرِ
ومـا لي بالتَّبعُّلِ مُستراحٌ ... ولو ردَّ التَّبعُّلُ لي أسيري

قال ثمَّ سكتت سكتةً كأنَّها تستمع إلى كلامي ثمَّ تهافتت وأنشأت تقول:

يُخيَّلُ لي أبا عمرو بنَ كعبٍ ... كأنَّكَ قد حُملتَ على سريرِ
فإنْ يكُ هكذا يا عمرو إنِّي ... مُبكِّرةٌ عليكَ إلى القبورِ

قال ثمَّ شهقت فماتت فقلت لهم من هذه قالوا هذه عقيلة بنت الضَّحَّاك بن النُّعمان بن المنذر بن ماء السَّماء قلت ومن عمرو هذا قالوا ابن عمِّها قال فارتحلت من عندهم فدخلت اليمامة فسألت عن عمرٍو فإذا به قد دفن في ذلك الوقت من ذلك اليوم[1].

---

[1] الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي ص٨٦

-٢٢-

قلَّ من سلا إلاَّ غلبه الهوَى

من كان سلوُّه تابعاً لظفَره بما من أجله كان ابتداء محبَّته فإنَّ الهجر والفراق لا يعيدان له هوًى ولا يتبعان على ضميره أسًى ومن كانت طبيعته بمشاكلة طبيعته فسلا لضجرة لحقته من مخالفة محبوبه أو من تعذُّر بعض مطلوبه أو لتأذٍّ بحاجب أو رقيب أو لملال من سعاية واشٍ أو عذول فإن أدنى عارض يطيف به من فراق أو هجر أو من مخافةً خيانة أو غدر يعيد عليه قلق الإشفاق ويردُّه بعد السُّلوِّ إلى مواقف العشاق وربما ألمَّ بمن هذه صفته في المنام طائفٌ من خيال فردَّه إلى أتمِّ ما كان عليه من الحال.

-٢٣-

مَنْ غلبهُ هواهُ علَى الصَّبر صبرَ لمنْ يهواهُ علَى الغدرِ

هذه الحال ليست جارية على الترتيب فيقع لصاحبها عذر أو تأنيب لأنها حال قد تجاوزت حدَّ العشق برضى المحب بكل فعل المحبوب وهو صاح عنها فأوقع له اختياره الرضى بها والمحبة معها ثمَّ تبعتها أشياء من غير جنسها إلاَّ أنَّها ليست هتكاً لحجاب المودة فاجتمعت معها وهذه حال وقعت بالمحبوب بعد أن وقع الرضى من محبة بخلافها ثمَّ وقع السخط منه بحدوثها والتباعد من صاحبها ثمَّ عرضت الحيرة الَّتي لا تمييز معها فردَّته بالصُّغر إلى ما لا يرضاه وصيَّرته على ما كان قبل وقوعه يخشاه وبين الرضى الاختياري وبين الرضى الاضطراري بَوْنٌ بعيد.

قال البحتري[1]:

تمـادَى بها وجـدي ومِلّكَ وصلَها
خـليٌّ الحشـا في وصـلها جدٌّ زاهدِ
ومـا النَّـاسُ إلاَّ واجـدٌ غيرُ مـالكٍ
لِـما يـبتغي أوْ مـالكٌ غـيرُ واجـدِ
سقَى الغيثَ أكتافَ الحِمى مِنْ محلَّةٍ
إلى الحِقفِ مِنْ رملِ اللِّوى المُتقاوِدِ

أمَّا من دعته الضرورة إلى الصبر على من غدر به فلا مدخل لنا في أمره وأما من يتمنَّى لإلفه أن يميـل إلى حـبِّ غـيره ليكـون ذلـك عاطفاً له عليه وداعياً له إلى وصله فهو من الحمق في محلٍّ قلَّ ما يتهيَّأ مثله وما أحسب من هذه صفته يكون إلاَّ داخلاً في جملة من وقعـت لهم المحابُّ لتنفيذ ضرب من الشَّهوات.

---

[1] ديوان البحتري: ٦٢٢

قال علي بن عبد الله بن جعفر[1]:

ولمَّا بـدا لي أنَّـها مـا تحبُّني وأنَّ فـؤادي ليسَ عنها بمُنسلي
تمنَّيتُ أنْ تهوَى سوايَ لعلَّها تذوقُ حرارات الهوَى فترقَّ لي

وكتبَت بَنان الشاعرة على قَلَنسوةٍ لجاريتها[2]:

إنْ كنتُ خُنتُ ولم أُضمر خيانتكم فـالله يـأخذ ممن خان أو ظلما
سماحـةً من مُحبٍّ خـان صاحـبه ما خان قطّ محبٌّ يَعرف الكَرما
والله لا نظـرَتْ عيـني إليـكَ ولا سالت مَسارِبُها شوقاً إليكَ دما

فهذا قد ألزم نفسه قطيعة من غدر به وصبَّرها على المكروه كلـه إلاَّ أنَّه مع ذلك غير مضيع لما في ذمَّته من رعايـة صـاحبه بنفـي الظُّنـون عنه وهذا أكثر ما يمكن من الرعاية أو أتمُّ ما يتهيَّأ مـن الصِّيانة لمـن بادر بالخيانة ولمن ضيَّع حقوق الأمانـة ومـن منـع نفسـه مـن طاعـة

---

[1] الأغاني ٢٢/ ٢٢٦

[2] الظرف والظرفاء ص٢٢٣

الاشتياق وهو بعد مقيم تحت راية الإشفاق فقد قدر على أمر عظيم وظفر بحظ جسيم.

obeikandl.com

مَنْ جَلَد على النَّوى فقد تعرَّض للبلا

اجتراء العشَّاق على المبادرة إلى الفراق يكون إما لنفي أقوال الوشاة عنهم وعن أنفسهم وإما لضجرة تلحقهم من مكروه يقع بهم وإما لنشاط في النَّفس وزهد ليحقها لقوَّة الظَّفر بما قد حصل لها فترى نفسها أجلَّ من محبوبها لأنَّها مالكة ولا شيء في العالم يعدله وهو وإن كان مالكاً لها فإنَّها لا ترى نفسها في حدِّ ما يُفتخر بملكه فهي لهذه العلَّة تتكبَّر عليه.

قال أبو تمام[1]:

هيَ البدرُ يُغنيها تودُّدُ وجهها ... إلى كلِّ مَنْ لاقتْ وإنْ لم تودَّدِ

علَى أنَّني لمْ أحوِ وفراً مجمَّعاً ... ففزتُ بهِ إلاَّ بشملٍ مبدَّدِ

ولمْ تعطِني الأيَّامُ نوماً مسكِّناً ... ألذُّ بهِ إلاَّ بنومٍ مشرَّدِ

---

[1] الأغاني ١٦ / ٤١٦

وقال زهير بن أبي سلمى[1]:

لعمركَ والخطوبُ معبِّراتٌ وفي طول المعاشرة التَّقالي

لـقدْ باليتُ مظعنَ أُمِّ أوفَى ولـكنْ أُمُّ أوفَى لا تُـبالي

وقلَّ من اجترأ هذا الضَّرب من الاجتراء وحمل نفسه على هذه الفظاظة والجفاء إلاَّ كان سريع النَّدم على صنيعه شديد الأسف على تصنيعه فكان كالذي يقول معنِّفاً لنفسه وموبِّخاً لها عند ما نزل به:

بكيتَ دماً حتَّى القيامة والحشر ولا زلتَ مغلوبَ العزيمة والصَّبر

أتظعنُ طوعَ النَّفسِ عمَّن تحبُّهُ وتبكي كما يبكي المُفارقُ عن صغرِ

أقمْ لا تسرْ والهمُّ عنكَ بمعزلٍ ودمعكَ باقٍ في جفونكَ لا يجري[2]

---

[1] جمهرة الأمثال ١/ ١٠٦

[2] الأمالي ١/ ١٦٧

في الوداعِ قبلَ الفراقِ بلاغٌ إلى وقتِ التَلاقِ

فعل الوداع وتركه نقص كله ممن قدر أن يرد الفراق عن نفسه وذلك إن الحزم لأهل الهوى ألاَّ يبسطوا على أرواحهم يد النوى فإن عذاب الهوى مع حضور المحبوب ينغِّص العيش ويبرِّح القلوب فكيف إذا تحكَّم فيه سلطان الفراق وأمدَّت صاحبه الفكر بخواطر الإشفاق والتهبت في الضَّمير لوعات الاشتياق حينئذ تُسكب العبرات وتتمكَّن الحسرات.

وقال حبيب بن أوس الطائي[1]:

أمَّا الهوَى فهوَ العذابُ فإن جرتْ فيهِ النَّوى فأليمُ كلِّ أليمِ

فإن كان لا بدَّ من فراق فلا يكن إلاَّ بعد تشييع ووداع. يُحكى عن محمد بن سيرين أنَّه قال إن كان لا بدَّ من قيد فليكن مجلياً.

---

[1] نهاية الأرب في فنون الأدب ٢/ ١٥١

واختيارات العشَّاق تفاوتُ في أمر الوداع تفاوتاً شديداً فبعضهم مسارع إلى الفراق تغنُّماً للوداع فمنهم الَّذي يقول[1]:

منْ يكنْ يكرهُ الفراقَ فإنِّي أشتهيهِ لموضعِ التَّسليمِ
إنَّ فيهِ عناقة لوداعٍ وانتظاري عناقةً لقدومِ

وقال البحتري في هذا المعنى وله في ضده وما منهما إلاَّ مختار في بابه[1]:

وقد ضمّنا وشك التلاقي ولفّنا عناق على أعناقنا ثمّ ضيّق
فلم نر إلّا مخبرا عن صبابة بشكوى وإلا عبرة تترقرق
فأحسن بنا والدمع بالدمع واشج يمازجه والخدّ بالخدّ ملصق

ومنهم من يصبر على الفراق ويتعمَّد التَّخلُّف عن الوداع إشفاقاً من مضاضة وعجزاً عن معاتبة ساعته.

---

[1] القائل هو أبو حفص الشطرنجيّ كما في نهاية الأرب في فنون الأدب ٢/ ٢٤٣

[1] التذكرة الحمدونية ٦/ ٨٣

فمنهم البحتري حيث يقول[1]:

اللهُ جارِكَ في انطلاقكْ تلقاءَ شآمكَ أوْ عراقكْ
لا تعذُلَنِّي في خروجي يومَ سرتَ ولمْ أُلاقكْ
إنِّي عرفتُ مواقفاً للبين تسفحُ غربَ ماقكْ
وعرفتُ ما يلقَى المودِّ عُ عندَ ضمِّكَ واعتناقكْ
وعلمتُ أنَّ لقاءَنا سببُ اشتياقي واشتياقكْ
وتركتُ ذاكَ تعمُّداً وخرجتُ أهربُ مِنْ فراقكْ

وحكى أبو سليمان عن ابن الأعرابي أنَّه قال قلت لعمار بن عقيل بن بلال بن جرير ما كان أبوك صانعاً حيث يقول[2]:

لو كنتُ أعلمُ أنَّ آخرَ عهدكمْ يومَ الفراقِ فعلتُ ما لمْ أفعلِ

قال فما يهمُّني إن قال كان يقلع عينيه ولا يرى أحبابه الظَّاعنين فمن يقع به الفراق اضطراراً ويترك هو الوداع اختياراً فهو أحسن

---

[1] عيون الأخبار ٣/ ٤٠

[2] مصارع العشاق ٢/ ١١

حالاً ممَّن يضطر إلى الأمرين جميعاً فإن اجتماع الهجر والفراق يتلف مهجة المشتاق.

وعلى أنَّ من المحبوبين من يدعوه حضور الفراق إلى الحرص على التَّوديع والتَّلاق فيكون وقوع النَّوى سبباً لاستخراج ما في نفسه من الضِّغن.

فمن ذلك قول أبي تمام[1]:

أعرضتْ برهةً فلمَّا أحسَّتْ بالنَّوى أعرضتْ عنِ الإعراضِ
نظرتْ فالتفتُّ منها إلى أحـ ـلى سوادٍ رأيتهُ في بياضِ

[1] الموازنة ٢/ ٢٨

-٢٦-

ما خُلق الفراق إلاَّ لتعذيب العشَّاق

أما الفراق فمستغنٍ ببشاعة اسمه عن الإغراق في وصفه.

ولقد أحسن حبيب بن أوس الطائي في قوله:

أخٌ لي لَوْ اعطيتُ المُنى باسمِ فقدِه بلا فقدِه كانتْ بهِ ثمناً بخسَا

فلو أنَّ نفسِي ألفُ نفسٍ لما انثنتْ يدُ البينِ أو تُودِي بآخرها نفسَا

وقد اختلف العشاق في التفصيل والفراق فمن أهل الهوى من يُعظم شأن الهجر على شأن النَّوى وينشد محتجّاً لذلك[1]:

وأنقذَها منْ غمرة الموت أنَّه صدودُ فراقٍ لا صدودُ تعمُّد

فأجرَى لها الإشفاقُ دمعاً موَرَّداً من الدَّمِ يجرِي فوقَ خدٍّ موَرَّدِ

وأكثر أهل هذا الشأن يُغلبون شأن النَّوى على شأن الهجر بل يغلِّبونه على كل مكروه من الأمر غير الخيانة والغدر.

---

[1] الأغاني ١٦/ ٤١٦

و الهجر إذا خرج عن أن يكون عقاباً على ذنب أو تذلُّلاً بإظهار تجنٍّ أو عتب أو مراقبة لواشٍ أو مللاً من العذل فلا معذر له غير الغدر والخيانة وترك المقام للهوى بحق الرعاية فهذا أصعب أسباب الهجر ومما ينقص من صعوبته ويكفُّ من عاديته أنَّه إذا جرى هذا المجرى لحق المقصود به ضربٌ من الغيظ لقبح ما صنع به عن غير سبب موجب له وليس شخص المحبوب بناءٍ عن نظره فيتمالك عنه من إزعاج الشوق بفكره ما يذهب بغيظه ويُلين من قلبه ومع الفراق زوال ذلك كله لأن غيبة الشخص عن الناظر مزيلة لكل غيظ وغافرة لكل ذنب وذاهبة بكل عجب يتداخل المحبوب والمحب فالنفوس تذل للفراق وتنقاد معه لدواعي الإشفاق والاشتياق فهذا مقدار ما يتسهّل لنا من وصفهما ويجوز أن نقطع به من الحكم بينهما.

قال ابن ميادة[1]:

سلِ اللهَ صبراً واعترفْ بفراقِ عسى بعدَ بينٍ أن يكونَ تلاقي

---

[1] الوَحشيَّات ص١٨٨

ألا ليتني قبلَ الفراقِ وبعدهُ سقاني بكأسٍ للمنيَّةِ ساقي

وقال أبو تمام[1]:

لو كانَ في البينِ إذْ بانوا لهمْ دعَةٌ لكانَ بينهمُ منْ أعظمِ الخطرِ
فكيفَ والبينُ موصولٌ به تعبٌ يكلِّفُ البيدَ في الإدلاجِ والبُكرِ
لو أنَّ ما تبتليني الحادثاتُ بهِ يكونُ بالماءِ لم يُشربْ من الكدرِ

[1] الأمالي ١/ ١٦٤

من غاب قرينهُ كثر حنينه

من شأن من غاب عن خليله أن تناله حيرةٌ في جميع أموره يصحو عنها ويرجع إليه تمييزه فمن كان المتناول له من تلك الحيرة والآخذ بعنانه من تلك الغمرة داعٍ من غلبات الاشتياق وناه عن المقام في قبضة الفراق لم يتمالك عن أحبابه وقتاً من الأوقات ولم يتشاغل عنهم بضرب من اللذَّات ومن كان الآخذ بيده من تلك الغمرات والمتخلِّص بخواطره من تلك السَّكرات ضرباً من الاشتغال بغير تلك الحال سلا على مرِّ الأيَّام والليالي وما دام في تلك الحيرة فهو متشاغل بتذكُّر من فارقه والشَّوق والحنين إلى من خلَّفه ألم تسمع الَّذي يقول[1]:

وإنَّ امرءاً في بلدة نصفُ قلبه ونصفٌ بأُخرى غيرها لصبورُ
وددْتُ من الشَّوقِ المُبرِّحِ أنَّني أُعارُ جناحَيْ طائرٍ فأطيرُ
فما من نعيمِ العيشِ بعدكِ لذَّةٌ ولا لسرورٍ لستِ فيهِ سرورُ

---

[1] العقد الفريد ٧/ ٦٧

من لم يلحق بالحمول بكى علَى الطُّلول

إذا كان صحوُ المفارق لأحبابه من التحنُّن الَّذي ذكرناه بقلبه داعياً له قبل هواه ندم على مقامه بعد مضيّ أحبابه أوْ على اجترائه على السَّفر وأحبَّته مقيمون في الحضر فاستقبح صنيعه وتلافى تصنيعه فإن كان المحبُّ هو المسافر عن حبيبه.

وكما قال عبيد الراعي[1]:

دعاني الهوَى من أمِّ وبرٍ ودونها ثلاثةُ أخماسٍ فديتُكَ داعيا
فعُجنا لذكراها وتشبيهِ صوتِها قلاصاً بمجهولِ الفلاةِ صواديا
بغبراءَ محرافٍ يبيتُ دليلُها مُشيحاً عليها للفراقدِ راعيا

وإن كانَ المحبوب المسافر والمحبُّ هو المتخلِّف عن إلفه تعسَّف ركوب المهالك في اللَّحاق.

---

[1] سمط اللآلي في شرح أمالي القالي ١/ ٣٥٩

كما قال العرجي[1]:

كم قدْ عصيتُ إليكِ من مُتنصَّحٍ ... داني القرابةِ أوْ وعيدِ أعادي

وتنـوفةٍ غـبراءَ أرمي عرضـها ... شوقاً إليكِ بلا هدايةِ هادي

ويُحكى أنَّ بشر بن مروان كـان في معسـكرٍ لـه بظهـر البصـرة فنادى بكثرة انصراف الجند من العسكر إلى المدينة فنادى مناديه مـن وجد بالبصرة من الجند سمِّرت كفُّه بمسمارٍ وكان في العسـكر فتًى يألف خلَّةً له بالبصرة فكتب إليها.

لـولا مخافـة بشـرٍ أوْ عقوبتـه وأن يسـمَّر في كفِّـي بمسـمار إذن لعطلت ثغري ثمَّ زرتكم إنَّ المحبَّ إذا ما اشتاق زوَّار.

فكتبت إليه:

ليسَ المحبُّ الَّذي يخشى العقابَ ولوْ ... كانت عقوبتهُ في كيَّة النَّارِ

إنَّ المحبَّ الَّـذي لا عيشَ ينفعهُ ... أوْ يستقرَّ ومـنْ يـهواهُ في الدَّارِ

فلمَّا قرأ الأبيات دخل البصرة فأخذه صاحب الحرس فجاء بـه إلى بشر بن مروان فقال له بشرٌ ألم تسمع النِّداء قـال بلـى قـال فمـا

---

[1] الظرف والظرفاء ص٦٥

حملك على مخالفته قال هذه الأبيات ودفعها إلى بشر فلمَّا قرأها أمر مناديه فنادى من أحبَّ المقام في العسكر فليقم ومن أحبَّ دخول البصرة فليدخل[1].

وقد ذكر عمر بن أبي ربيعة هذا المعنى فجوّده[2]:

خليليَّ ما بالُ المطايا كأنَّما
نراها علَى الأدبارِ بالقومِ تنكصُ
وقدْ أتعبَ الحادي سُراهنَّ وانثنى
بهنَّ فما بالرَّاجعاتِ مُقلِّصُ
وقدْ قُطعتْ أعناقهُنَّ صبابةً
فأنفسُها ممَّا يُلاقينَ شُخَّصُ
يزدْنَ بنا قُرباً فيزدادُ شوقُنا
إذا ازدادَ طولُ العهدِ والبعدُ ينقصُ

---

[1] روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص٢٠٨ ، الأمالي ٢/ ٣٠ ، زهر الأكم في الأمثال والحكم ١/ ١٤٥

[2] زهر الآداب وثمر الألباب ٢/ ٥٥٣

أفلا ترى إلى إيضاحه أنَّ العلّة في تزايد شوقه إنَّما هي تطاول مدَّة وأنَّه كلَّما قطع جزءٌ من الطريق فقرب المقصود زاد في مدَّة المفارقة وقتٌ فزاد الاشتياق على حسب تزايد مدَّة الفراق على أنَّ عمر قد أوضح أشياء وأغفل شيئاً من أنَّ تطاول المدَّة يزيد في الشَّوق مع تقارب الشُّقَّة ولم يذكر أنَّ قوَّة الرَّجاء لسرعة اللِّقاء من أقوى الأسباب في تقوية الشَّوق عند الاقتراب.

obeikandl.com

من قصَّر عن مصاحبة الجار لم تنفعه مسائلة الدَّار

كان المجنون[1] لما أصابه ما أصابه يخرج فإذا أتى الشَّام قال لهم أين أرض بني عامر فقالوا له وأين أنت من أرض بني عامرٍ وقف عند جبلٍ يقال له التَّوباد ثمَّ أنشد:

وأجهشْتُ للتَّوباد لَمَّا رأيتهُ وهلَّلَ للرَّحمان حينَ رآني
وأذريْتُ دمعَ العَين لَمَّا رأيتهُ ونادى بأعلى صَوته فدعاني
وقلتُ له أينَ الَّذينَ عهدتهمْ حوالَيْكَ في عيشٍ وخير زمانِ
فقالَ مضوْا واستودعوني بلادهُمْ ومنْ ذا الَّذي يبقى علَى الحدثان
وإنِّي لأبكي اليومَ من حذري غداً فراقَكَ والحيَّانِ مُؤْتلفانِ
سجالاً وتهْتانــاً ووبْلاً وديمةً وسحّاً وتسجاماً وينهملانِ

---

[1] مجنون ليلى

قال ثمَّ يمضي حتَّى يأتي العراق فيقول مثل ذلك ثمَّ يأتي اليمن فيقول مثل ذلك[1].

obeikandl.com

[1] الأمالي ١/ ٢٠٧

من مُنع من البراح تشوَّق بالرِّياح

كلُّ متشوِّق من العشَّاق بنسيم ريحٍ أوْ لمعان برق أوْ سجع حمام فهو ناقصٌ عن حال التَّمام من جهتين إحداهما قلَّة صبره على فقد صاحبه حتَّى يحتاج أن يرى ما يشوقه بذكره والأخرى أنَّ من كانت هذه صفته فإنَّ الصَّبابة لم تتمالك على قلبه فتشغله عن أن يتشوَّق بشيء يلمُّ به غير أنَّ الشَّوق بما ذكرناه إنَّما يقصِّر بأهله عن درجة الكمال وليس بمدخل لهم في جملة الموصوفين بالنَّقص والإخلال ومن مختار ما قيل في الشَّوق بالرِّياح. قول ذي الرمة[1]:

إذا هبَّت الأرياحُ من نحوِ جانب به
أهلُ ميٍّ هاجَ شوقي هبوبُها
هوًى تذرفُ العينان منهُ وإنَّما
هوى كلِّ نفسٍ حيثُ حلَّ حبيبُها

---

[1] ديوانه: ٦٩٤ ـ ٦٩٥

-٣١-

في لوامعِ البروقِ أُنسٌ للمستوحشِ المشتاقِ

قال محمد بن معن الغفاري: اقتحمت السَّنة ودخل المدينة ناسٌ من الأعراب منهم صرَّة من كلاب وكانوا يدعون عامَهم ذلك الجُراف قال فأبرقوا ليلة في النَّجد وغدوت عليهم فإذا غلام منهم قد عاد جلداً وعظماً ضيعةً ومرضاً وضمانة حبٍّ وإذا هو قد رفع عقيرته بأبيات والهاً من الليل[1]:

ألا يا سنَا بَرْقٍ على قُلَلِ الحِمَى لهَنَّكَ من بَرْقٍ عليَّ كَرِيمُ
لَمعتَ اقتداءَ الطيرِ، والقومُ هُجّعٌ فَهَيَّجتَ أحزاناً، وأنتَ سَلِيمُ
فَبِتُّ بجَدِّ المرْفَقَينِ أشِيمُهُ كأني لبَرْقٍ بالسّتَارِ حَمِيمُ
فهلْ من مُعيرٍ طَرْفَ عَينٍ خَلِيَّةٍ؟ فإنسَانُ عَينِ العَامِرِيِّ كَلِيمُ
رَمَى قَلبَهُ البرْقُ المُلألئُ رَمْيَةً بذكرِ الحِمَى وَهناً فصارَ يَهِيمُ

---

[1] مصارع العشاق ٢/ ١٠١

قال فقلت له ففي دون ما بك يُفحم عن الشِّعر فقال صدقت ولكنَّ البرق أنطقني ثمَّ ما لبث يومه ذلك حتَّى مات.

obeikandl.com

في تلهُّب النّيرانِ أنسٌ للمدنف الحيران

يُحكى أنَّ أعرابياً ذكر صاحبةً له فقال إنِّي لأذكرها وبيني وبينها عقبة طائرٍ[١] وأجد من ذكرها ريح المسك .

وقال جميل بن معمر[٢]:

أكذَّبتُ طرفي أمْ رأيتُ بذي الغضا
لُبْنَةَ ناراً فارْفَعوا أيُّها الرَّكبُ
إلى ضوءِ نارٍ ما تبوخُ كأنَّها
منَ البعدِ والإقواءِ جيبٌ لها نقبُ

---

[١] عقبة الطَّائر مئة فرسخ ، والفرسخ اثنا عشر ألف ذراع طولي، وهو المشهور.

[٢] الأمالي ٢/ ٢٠٦

وقال كثيّر[1]:

رأيتُ وأصحابِي بأيْلةَ موهنا ... وقدْ عادُ نجمُ الفرقدِ المتصوّبُ

لعزَّةَ نـــاراً مـــا تبوخُ كأنَّها ... إذا ما رمقْناها منَ البعدِ كوكبُ

obeikandl.com

[1] التذكرة الحمدونية ٥/ ٤١٤

في نوحِ الحَمامِ أُنسٌ للمنفردِ المُستهامِ

ذكروا أنَّ مجنون بني عامر رقد ليلةً تحت شجرةٍ فانتبه بتغريد طائرٍ فأنشأ[1]:

لقدْ هتفتْ في جنحِ ليلٍ حمامةٌ على فنن تدعُو وإنِّي لنائمُ
فقلتُ اعتذاراً عندَ ذاكَ وإنَّني لنفسي فيما قدْ رأيتُ للائمُ
أأزعمُ أنِّي عاشقٌ ذو صبابةٍ بليلَى ولا أبكِي وتبكِي الحمائمُ
كذبتُ وبيتِ اللهِ لوْ كنتُ عاشقاً لَما سبقَني بالبكاءِ الحمائمُ

افتراه إن سلا عمَّن يهواه لم يبق له في قلبه أثر من حبِّه ولا خاطر شارد من ذكره يعيد هواه على فكره فيعطف قلبه عليه إذ لم يستطع أن يردَّ وجده إليه حتَّى يكون نوح الحمام أقوى شيئاً في ردِّ قلبه إلى أحبابه مَن كان السبب في تعذيبه نوح الحمام كان السبب في تبعيده أضعف نوائب الأيَّام .

---

[1] الظرف والظرفاء ص٧٤

من امتحن بالمفارقة والهجر اشتغل فكره بالعيافة والزَّجر

سبيل كلّ مشغوف بشيء ما كان أن يحذر عليه ما دام في قبضته ويرجو رجوعه إذا خرج عن يده فالمحبُّ ما دام مقيماً مع محبوبه فخواطره موقوفةٌ على الحذر عليه من الزوال وفكره مرتهنةٌ بالخوف من تغيّر الحال فإذا فارق محبوبه وافتقد مطلوبه اشتغلت خواطره بتأميل أوبته كاشتغالها بمحاذرة فرقته إذ هو غير خال من الأحوال فتراه حينئذ يتيامن بالسَّوانح حسب تشاؤمه بالبوارح .

قال عبد الله بن قيس الرقيات[1]:

بشَّرَ الظَّبيُ والغرابُ بسُعدى مرحباً بالذي يقولُ الغرابُ
قالَ لي إنَّ خيرَ سُعدى قريبٌ قدْ أتى أنْ يكونَ منهُ اقترابُ
قلتُ أنَّى تكونُ سعدى قريباً وعليها الحصونُ والأبوابُ
حبَّذا الرِّيمُ والوشاحانِ والقصْ رُ الَّذي لا تنالهُ الأسبابُ

---

[1] الأغاني ١٧ / ٢٧٥

فعسى أنْ يُـؤتِّيَ اللـه أمـراً لـيسَ في غيِّهِ علـينا ارتقابُ

وقال جميل بن معمر[1]:

ألا يا غرابَ البين فيمَ تصيحُ فصوتُـكَ مشْنيٌّ إليَّ قبـيحُ
وكـلُّ غـداة لا أباَ لكَ تنتحي إليَّ فتلقـاني وأنـتَ مُشيـحُ
تحدِّثني أنْ لـستُ لاقيَ نعمة بعُدتَ ولا أمسى لديكَ نصيحُ
فإنْ لم تهجني ذاتَ يومٍ فإنَّهُ سيكفيكَ ورقاءُ السَّراةِ صدوحُ

[1] سمط اللآلي في شرح أمالي القالي ١/ ٢٤٣

في حنين البعير المفارق أنسٌ لكلِّ صبٍّ وامقٍ

قال جرير[١]:

أرى ناقتي تشكو طروقاً وشاقها ... وميضٌ إلى ذاتِ السَّلاسلِ لامعُ
فقلتُ لها حنِّي رُويداً فإنَّني ... إلى أهلِ نجدٍ من تهامةَ نازعُ
فلمَّا رأتْ أنْ لا تُقولَ وإنَّما ... لها من هواها ما تجنُّ الأضالعُ
تمطَّتْ لمجدولٍ طويلٍ فطالعتْ ... وماذا منَ البرقِ اليماني تُطالعُ

وقال عروة بن أذينة[٢]:

وتفرَّقوا بعدَ الجميعِ لنيَّةٍ ... لا بدَّ أن يتفرَّقَ الجيرانُ
لا تصبرُ الإبلُ الجِلادُ تفرَّقتْ ... حتَّى تحنَّ ويصبرُ الإنسانُ

---

[١] شرح نقائض جرير والفرزدق ٣/ ٨١٤

[٢] الكامل في اللغة والأدب ٣/ ٩١

من فاته الوصال نعشه الخيال

قد تقدَّم قولنا في عيب من خلَّف خليله أوْ تخلَّف عنه في وقته أوْ عن اللُّحوق به على حسب طاقته ثمَّ وكَّدنا عيب من لم يرض حتَّى أقرَّ بأنَّ المشوَّق له إلى إلفه عارضٌ غير متمكِّن له من نفسه وأصحاب هذا الباب الَّذي نحن في أوَّله يلحقهم ذلك العيب كلُّه ويزدادون معه لوماً على مسامحتهم أنفسهم في التَّلذُّذ برقادهم وأخلاَّؤهم ظاعنون عن بلادهم ومن الصُّوفيَّة من لا يقنع لهم بما ألحقناه من العيب بهم حتَّى يقولوا إنَّ النَّوم لو كان مانعاً لهم لكان تخصيصهم إيَّاه بأنَّه يريهم أحبَّتهم نقصاً بيِّناً في مودَّتهم فإنَّ الحال إذا تمكَّنت لم تفترق الرُّوحان وإن افترق الشَّخصان فالمحبُّ المشاهد لصاحبه على كلِّ حال مستغن عن الاستعانة على إحضاره برؤية الخيال ومن طرائف ما قيل في الخيال وأدلّه على ضعف قائله في الحال.

قول ذي الرمة[1]:

فيـــا ميُّ هـلْ يُجـزى بُكائي بمثله
مـــراراً وأنفـــاسي عليـك الزَّوافرُ
وإنْ لامني يا ميُّ مـن دونَ صُحبتي
لكِ الدَّهرَ من أُحدوثةِ النَّفسِ ذاكرُ
وأنْ لا ينـــالَ الرَّكـبُ يـا ميُّ وقـفةً
مـــنَ اللَّيـــلِ إلاَّ اعتـــادني لكِ زائرُ

فهذا أحسن الله جزاءه لم يرض بالعيب الَّذي ذكرنـاه حتَّـى طالـب محبوبه بأن يجازيه على تخييله إيَّاه في منامه ثمَّ لم يقنعه أن يجازى بمثل بكائه مراراً فأما اعتذاره بأنه لا يرقد إلاَّ اعتاده منها زائرٌ فقد يتهيَّأ أن يخفَّف جرمه فيه فضربٌ من المعاذر فيقال إنَّه إنَّما عنى أنَّه لا ينفـكُّ خاطره من ذكرها فإذا رقد رأى خيالها بقلبـه لشـدَّة غلبتـه في حـال اليقظة على فكره .

---

[1] البديع في نقد الشعر ص٩٦

من مُنع من النَّظر استأنس بالأثر

كان بعض القسس يمر فسمع كلاما خفيا من زقاق فإذا جارية تشكو إلى صديق لها ما لقيت فيه فقالت: أوعدوني وضربوني ومزّقوا ثيابي وفعلوا وصنعوا وهو ساكت لا يتكلم فقال القسيس خذوه فأخذ وخلى عن المرأة ثم قال للرجل: إنّها تقص عليك ما لاقت فيك فلم كنت ساكتا؟ فقال: أصلحك الله لم ألق فيها شكوى ولم أكذب فأمر به فضرب خمسين درة وقال: ارجع فاشك إليها ما لاقيته فيها[1]. قال جرير[2]:

ألا حيِّ رهبَى ثمَّ حيِّ المطاليا ... فقدْ كانَ مأنوساً فأصبحَ خاليا

ألا أيُّها الوادي الَّذي ضمَّ سيلهُ ... إلينا نوَى ظمياءَ حيِّيتَ واديا

نظرتُ برهبَى والظَّعائنُ باللِّوى ... فطارتْ برهبَى شعبةٌ مِنْ فؤاديا

---

[1] محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء ٢/ ٩٦

[2] الوساطة بين المتنبي وخصومه ص٢٩

مَنْ حُجبَ عن الأثرِ تعلّل بالذّكرِ

قال النابغة الجعدي[١]:

تذكَّرتُ والذِّكرى تضرُّ بذي الهوَى
ومـــنْ حاجةِ المحزونِ أنْ يتذكَّرا
نـــدامايَ عنـــدَ المنـــذرِ بنِ محرِّقٍ
أرَى اليومَ منهمْ ظاهرَ الأرضِ مقفرَا

وقال البحتري[٢]:

أرسومُ دارٍ أمْ سطورُ كتابِ ذهبتْ بشاشتُها معَ الأحقابِ
يجـتازُ زائرُهـا بغيرِ لُبـانةٍ ويُردُّ ســائلُها بغيرِ جـوابِ

---

[١] الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي ص٦٧٤

[٢] التذكرة الحمدونية ٦/ ١٩٠

ولـربَّما كـانَ الزَّمـــانُ محبَّباً فنـــبَا بمنْ فيـها منَ الأحبابِ

أيَّامَ عُودُ الدَّهرِ أخضرُ والهوَى تــربٌ لبيضِ ظِبائها الأتـرابِ

لـوْ تُسعفينَ ومـا سألتُ مشقَّةً لعدلتِ حرَّ جوًى ببردِ رُضابِ

وعُتبـتُ مِـنْ حُبِّكِ حتَّى إنَّني أخشَى ملامـكِ أنْ أبثَّك ما بي

obeikandl.com

مُسامرةُ الأوهامِ والأماني سببٌ لتمام العجزِ والتَّواني

قال حباب القشيري : لمَّا ملك الوليد بن يزيد بعث إلى ابن ميادة وكان معجباً بشعره فألزمه بابه فاشتاق الشَّيخ لمَّا طال مقامه فقال:

ألا ليتَ شعري هلْ أبيتنَّ ليلةً
بحرَّةِ ليلَى حيثُ ربَّتَني أهلي
بلادٌ بها نيطتْ عليَّ تمائمي
وقُطِّعنَ عنِّي حيثُ أدركَني عقلي
فإن كنتُ عنْ تلكَ المواطنِ حَابسِي
فأيسرْ عليَّ الرِّزقَ واجمعْ إذاً شملي

قال فلمَّا سمع شعره كتب إلى مصدِّق كلب أن يعطيه مئة ناقة دهماءَ جعاداً[1].

وقال كثيّر[2]:

وددتُ وما تُغني الودادةُ أنَّني بما في ضميرِ الحاجبيَّةِ عالمُ
فإنْ كانَ خيراً سرَّني وعلمتهُ وإن كانَ شراً لمْ تلُمْني اللَّوائمُ
وما ذكرتكِ النَّفسُ إلاَّ تفرَّقتْ فريقين منها عاذرٌ لي ولائمُ

وقال العباس بن الأحنف[3]:

تمنَّى رجالٌ ما أحبُّوا وإنَّما تمنَّيتُ أنْ أشكُو إليها وتسمعَا
أرَى كلَّ معشوقينِ غيري وغيرَها قد استعذَبا طعمَ الهوَى وتمتَّعا
وإنِّي وإيَّاها علَى حدِّ رقبة وتفريقِ شملٍ لمْ نبتْ ليلةً معَا
وإنِّي لأنهَى النَّفسَ عنها ولمْ تكنْ بشيءٍ منَ الدُّنيا سواها لتقْنَعا

---

[1] ربيع الأبرار ونصوص الأخبار ٣/ ١٨١

[2] التذكرة الحمدونية ٧/ ٢٩٤

[3] التذكرة الحمدونية ٦/ ١٦٨

مَنْ قصُرَ نومُهُ طالَ ليلُهُ

أمَّا هؤلاء فهم على كلِّ الأحوال أعذر ممَّن كان قبلهم على أنَّ فراغهم لوصف ما بدا لهم هُجنة بهم ودلالة على ضعف أحوالهم وقال الطائي وما أظنُّ أنَّه احترز به من هذا اللَّوم الَّذي يلحق غيره فألزم نفسه أكثر ما حذره وذلك قوله:

لستُ أدري أطالَ ليلي أمْ لا كيفَ يدري بذاكَ مَنْ يتقلاَّ
لوْ تفرَّغتُ في استطالة ليلي ولرعيِ النُّجومِ كنتُ مخلاَّ

فهو وإنْ كانت جهالته بحاله دالَّة على قوَّة اشتغاله فإنَّ علمه بالعلَّة الَّتي أوجبت جهله بها ضربٌ من الفلسفة الَّتي لا يصلح أن يعلمها إلاَّ متخلٍّ من هذه الحالة كلِّها ففرَّ من شيء ووقع في أعظم منه ألا ترى أنَّ البهائم تجد ألم ما ينالها وتُظهر التَّأذِّي به وليس يعلم أنَّ الاشتغال بالألم يمنع من وصفه إلاَّ أهل الفلسفة والحكم والتَّكلُّف إذا دخل في شيء نبَّه على موضعه وترجم عن ضمير متحلِّله.

قال النابغة الذبياني[1]:

كليني لهمٍّ يا أُميمةُ ناصبِ وليلٍ أُقاسيه بطيءُ الكواكبِ
وصدرٍ أراحَ اللَّيلَ غاربَ همِّه يُضاعفُ فيه الحزنَ مِنْ كلِّ جانبِ
تقاعسَ حتَّى قلتُ ليسَ بمنقضٍ وليسَ الَّذي يرعَى النُّجومَ بآيبِ

وتوهم هؤلاء بمنع أحبَّتهم إيَّاهم النَّوم وإن كان مُسقطاً عنهم لائمة النُّوَّام فإنَّه موجب عليهم ضرباً من الملام لأن في الحال يرون سهرهم بالفكر في أحبَّتهم نعمة لا يعرف قدرها فضلاً عن أن يؤدَّى شكرها.

---

[1] التذكرة الحمدونية ٥/ ٣٣٢

-٤١-

من غلب عزاه كثر بكاه

أمَّا أهل هذا الباب فقد انفردوا بأمرٍ يقوم لهم ببعض العذر على أنَّ ذلك الأمر الَّذي يعذرهم هو بعينه يدلُّ على نقيصتهمْ فأما جهته المحمودة فهي وصف الحال بالدَّمعَ لا يمكن فيها من التَّصنُّع ما يمكن في الصِّفات بالألسن وأما جهته المذمومة وهي أنَّ امتناع الدَّمع من الجريان أوَّل على تظاهر ألم الأشجان .

قال أبو تمام الطائي[1] :

لا عذرَ للصبِّ أن يُفني الحياءَ ولا
للدَّمعِ بعدَ مضيِّ الحيِّ أنْ يقفا
حتَّى يطلَّ بماءٍ سافحٍ ودمٍ
في الرَّبعِ يُحسبُ من عينيهِ قدْ رعِفا

---

[1] زهر الآداب وثمر الألباب ٣/ ٦٦٠

خول الجسد من دلائل الكمد

أمَّا الدَّلالة على صحَّة هذا القول من جهة الطِّبِّ فهي إنَّ الحرارة المتولِّدة من الحزن تنحاز إلى القلب من سائر أعضاء البدن ثمَّ تتصاعد إلى الدِّماغ فتتولَّد بخارات رديَّةً فإن طاقتها الطَّبيعة بالقوَّة الغريزيَّة أذابت تلك البخارات الرَّديَّة فأجرتها دموعاً وربَّما أضرَّ كثرة جريانها بالمجاري فأدماها فجرى الدَّم مجرى الدَّمع وهكذا تذيب تلك القوى البخارات المتولِّدة في الدِّماغ في كمون الحرارة لما يعرض للرَّأس من حرٍّ وبرد فتجريه من الأنف زكاماً فتذهب غائلته ولو لم تذبه وتجره من الأنف صار كيموساً[1] غليظاً ومادَّة منصبةً إلى بعض الأعضاء الرَّئيسية فحينئذ تتلف أوْ تولِّد علَّةً غليظةً فكذلك الدُّموع إن لم تطق تذويبها القوى الطَّبيعيَّة واشتغلت عنها بمدافعة ما هو أخوف على النَّفس منها صارت تلك البخارات

---

[1] (الكيموس) الخلاصة الغذائية وهي مادة لبنية بيضاء صالحة للامتصاص تستمدها الأمعاء من المواد الغذائية في أثناء مرورها بها. (المعجم الوسيط).

كيموساً غليظاً فولَّد أمراً عظيماً وإمَّا أن يستقرَّ في الدماغ فيفسد ما جمع فيبطل الذّكر ويفسد الفكر ويهيج التَّخييلات المستحيلات وذلك هو الجنون بعينه وربَّما فسدت منه كرَّةً أو كرَّتين فيفسد بفسادها ما كان مستقيماً بصلاحها وشرح ذلك يطول وليس من جنس ما ابتدأناه فيجب علينا أن نشرح منه ما أجملناه وربَّما انحدر ذلك الكيموس عن الدماغ إلى القلب فهتك بعض الحجب أوْ جميعها وكان منه حينئذ التَّلف لا محالة والله أعلم وربَّما انحدر إلى الكبد فمنع شهوة الطَّعام والشَّراب فحينئذ يكون نحول الجسم وضعف القوَّة ولقد أصاب كلَّ الإصابة على الإصابة حيث يقول:

عجائبُ الحبِّ لا تفنى وأوَّلها ممَّنْ تحبُّ بتكذيب وإنكار
ماءُ المدامعِ نارُ الشَّوقِ تُحدرهُ فهلْ سمعتَ بماءٍ فاضَ من نارِ

لأنَّ هذا هو الَّذي قدَّمنا ذكره من أنَّ الحرارات هي المولِّدة لتلك البخارات الَّتي يحدث الدَّمع منها بإذابة الحرارة الغريزية لها.

طريق الصَّبر بعيدٌ وكتمان الحبِّ شديدٌ

كان يقال سرُّك أسيرك فإذا تكلَّمت به صرت أسيره وأمَّا إفشاء من يحبُّ سرَّه إلى محبوبه فقد تقدَّم القول فيه بما في بعضه بلاغٌ وأمَّا اطِّلاع سائر النَّاس على وجد المحبّ بالمحبوب فهو خطأ من وجوه أوَّلها تعرُّض المحبوب لما لا يحبّ من القالات والتَّشنيعات ثمَّ تعرُّض المحبّ نفسه للسِّعاية والارتقاب له وإنَّما يوصى بهذه الوصيّة من أمر سرّه إليه فأمّا من قد أخرجت الحال زمام السّرّ من يديه فلا ذنب له ولا لوم عليه وأمّا أسرار المحبوب عند المحبّ مثل مواعيده له وزيارته إيَّاه ومساعدته له على ما يهواه وما يجري بينهما من المعاتبات بل من سرائر المخاصمات فإنَّ غالبات الوجد لا توجب إفشائه بل توجب صونه وإخفائه ولن يشيع مثل ما وصفنا إلاَّ ضعيفٌ في الحال جداً فكتمان هذا أبين وجوباً من أن نزيد القول فيه توكيداً وإفشاء المحبَّة وحدها إلى غير المحبوب فواجبٌ على من أطاق كتمها ألاَّ يظهرها ومن عجز فخارجٌ عن باب المنع والوجوب ومن ضاق صدره عن سرِّه فلم يلم غيره على نشره وإن كان في

الحقيقة ملوماً لأنَّ للمرء أن يتطوَّع بإظهار سرِّه وعلى المستودع أن لا يظهر سرَّ مستودعه.

قال يزيد بن الطثرية[1]:

ومُستخبرٍ عنها ليعلمَ ما الَّذي لها في فؤادي غيرَ أنِّي أُحاذرُهْ
وردْتُ به عمياءَ منها ولمْ أكُنْ إذا ما وشى واشٍ بليلى أُناظرُهْ

[1] التذكرة الحمدونية ٦/ ١٣٧

obeikandl.com

مَنْ غُلب صبرهُ ظهرَ سرُّهُ

وركبت سكينة بنت الحسين بن عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنهم مع جواريها، فمرّت بعروة بن أذينة الليثي، وهو في فناء قصر ابن عتبة، فقالت لجواريها: من الشّيخ؟ فقلن لها: عروة. فعدلت إليه فقالت له: يا أبا عامر، تزعم أنّك لم تعشق قط وأنت تقول؟:

قالت: وأبثتها وجدي فبحت به؛

قد كنت عندي تحت السّتر فاستتر

ألست تبصر من حولي؟ فقلت لها:

غطّي هواك وما ألقى على بصري

كلّ ما ترى حواليّ من جوارٍ أحرارٍ إن كان خرج الكلام من قلبٍ سليمٍ[1].

---

[1] أخبار النساء ص٦١

وقال الأحوص:

لقد سـلا كلُّ صبٍّ أوْ قضَى وطراً
وما سـلوتُ ومـا قضَّيتُ أوطاري
أضمرتُ ذاكَ زمـانـاً ثمَّ بحتُ بـهِ
فزادَني سقمـاً بَـوحي وإضمـاري
أخفيتُ في العرفِ هذا النُّكرَ ذلكمُ
فصرَّحَ الوجدُ عنْ عُرفِي وإنكارِي

وهذا لعمري من حسـن الكـلام ونفيسـه ألا تـرى إلى إخبـاره عـن اجتهاده في كتم ما في قلبه حتَّى صرَّح الوجد به من غير قصد له ولا اختيار منه وهذه هي الحال التامـة مـن جهـتين إحـداهما أن يكـون المحبُّ مؤثراً الإسرار على الإعلان والأخرى أن يكون الوجد تملَّكه ملكاً يزول معه الكتمان فيكون ضابطاً لنفسه مؤثراً لكتمان سـرٍّ مـا دام التَّمييز معه إلى أن يغلبه من الوجد ما لا يستطيع أن يدفعه.

ولقد أحسن البحتري غاية الإحسان حيث يقول:

نصرتُ لها الشَّوقَ اللَّجوجَ بأدمعٍ
تلاحقنَ في أعقابِ وصلٍ تصرَّما
وتيَّمني أنَّ الجوَى غيرُ مُقصرٍ
وأنَّ الحمَى وصفٌ لمنْ حلَّ بالحمَى
أُؤلِّفُ نفساً قدْ أُعيدتْ على الهوَى
شعاعاً وقلباً في الغواني مقسَّما
لقدْ أخذَ الرُّكبانُ أمسِ وغادرُوا
حديثَينِ منَّا ظاهراً ومكتَّما
وما كانَ بادي الحبِّ منَّا ومنكمُ
ليخفَى ولا سرُّ التَّلاقي ليُعلما

أفلا ترى إلى حسن قسمته لما خفي وما ظهر من سرِّه فأعلمك أنَّ ما به من غلبات الوجد أخرجها الشَّوق عن يده فظهرت لمن بحضرته وأنَّ ما استودعه من السَّرائر الَّتي كانت بينه وبين إلفه لم يكن ليطَّلع عليها غيره وهذا هو الَّذي أطريناه ومدحنا من فعله في

الباب الماضي من وجوب ظهور الحال وحدها واستخفاء ما بعدها والعلَّة في ذلك أنَّ مكتوم الحبّ يظهره الدَّمع ومكنون ما جرى من المحبِّين لا يظهره غير النُّطق والنَّاس قادرون على حبس ألسنتهم وعاجزون عن حبس دمعهم سيَّما إذا ملكهم اشتياق أو جدَّ بهم فراقٌ.

obeikandl.com

مَنْ لم يقعْ لهُ الهوَى باكتسابٍ
لم ينزجرْ بالعتابِ

العلَّة في ذلك أنَّ المعاتبة إنَّما هي توقيف على مواضع المصلحة وتبين لما في الحال الَّتي بقي عليها المعاتب من المنقصة فمن كان أصل هواه اختياراً لنفسه فتبيَّن موضع النَّقص في اختياره رجع إلى قول عذَّاله ومن وقع هواه مضطراً بغلبة إلى الانقياد لإلفه لم يعلق العذل بسمعه لأنَّ العذل يأتيه من غير جهته والشَّيءُ لا يوجب زواله إلاَّ ضدُّ ما أوجب ثباته فكما أنَّ الهوَى الاختياريَّ يضادُّه التَّوقيف على مواضع الحال فيوجب على صاحبه أن يختار إزالته فكذلك الهوَى الاضطراريُّ لا يزايله إلاَّ اضطرارٌ يضادُّه والهوَى الاختياريُّ أيضاً على ضعفه لا تمحوه ضروريَّته ولا تعارض في تركه لأنَّها تجيء من غير جهته وهو لا يزول إلاَّ بزوال الجهة الَّتي أوجبته إذْ محالٌ أن يكون شيءٌ علَّةً لشيءٍ فيزول المعلول والعلَّة قائمةٌ.

ولقد أحسن عمر بن ضبيعة الرقاشي حيث يقول[1]:

قضَى اللهُ حبَّ المالكيَّةِ فاصطبرْ عليه فقدْ تجري الأمورُ علَى قدرِ
ألا فليقلْ مَنْ شاءَ ما شاءَ إنَّما يُلامُ الفتَى فيما استطاعَ منَ الأمرِ

والعذل لا يزيد المحبة ولا ينقصها ولكن النَّفس إذا اشتدَّ ضنُّها فغُري العذل بمسامعها عارضها ضربٌ من الإشفاق على حال من عوتبت في محبَّته وخشيت أن يكون العذل مزيلاً له عن مرتبته وكان تحريك خاطرة الضَّنّ بذلك زائدة في القلق ومهيِّجة للفكر فيتوهَّم صاحبها أنَّ محبَّته قد تزايدت وما تزايدت ولا تناقصت وهذا الغلط لم يجر على صاحب هذه الأبيات وحده بل قد جرى على من قبله وبعده.

وقال معاذ ليلى في نحو ذلك[2]:

يقرُّ بعيني قربُها ويَزيدُني بها عجباً مَنْ كانَ عندي يعيبُها
وكمْ قائلٍ قد قالَ تُبْ فعصيتهُ وتلكَ لعمري توبةٌ لا أتوبُها

---

[1] التذكرة الحمدونية ٦/ ٥٨

[2] الأغاني ٩/ ٤٢٤

فيا نفسُ صبراً لستُ واللهِ فاعلَمي بأوَّلِ نفسٍ غابَ عنها حبيبُها

أما العذل الذي يقع ابتداء فليس على النَّفس منه من المؤونة كما عليها من عذل من أملت عنده من المعونة ولقد كسب هذا البائس على نفسه تعباً كاسراً لمنقلبه ومسقطاً لهمَّته باستدعائه المساعدة من ذكر قصَّته ومن هذا وأشباهه كرهنا للمحبِّ الاطلاع على أسراره ولكن متى غُلب على أمره لم يلم على إفشاء سرِّه.

obeikandl.com

مَنْ قدُمَ هواهُ قوِيَ أساهُ

من كان أوَّل ما وقع به من أسباب المحبة استحساناً ثمَّ ينمي على الترتيب الذي وصفناه حالاً فحالاً حتَّى ينتهي إلى بعض الأحوال الصِّعاب التي ذكرناها كان زوالها إن زال بطيئاً ومن عشق بأوَّل النَّظر سلا مع أوَّل الظَّفر فإن لم يظفر بمن يهواه سلا إذا تعذَّر عليه ما يتمنَّاه فإذا وقع الهوى بأوَّل نظر ثمَّ ارتقى صاحبه ارتقاءً بغير ترتيب حتَّى صار مدلَّهاً بمن يهواه قبل أن تطول معاشرته كان بقاء ذلك الهوى يسيراً وهكذا كل شيء في العالم إن اعتبرته وجدت ما ارتقى إلى هذه الغاية القصوى بغير ترتيب انحطَّ انحطاطاً طويلاً ولعمري لقد أحسن الذي يقول:

وما كانَ حُبِّيها لأوَّل نظرة ولا غمرةً منْ صبوة فتجلَّت
ولكنَّها الدُّنيا تولَّتْ فما الَّذي يُعزِّي عنِ الدُّنيا إذاً ما تولَّتِ

وقال كثير[1]:

يلومـــكَ في ليلَى وعقلكَ عندَها رجالٌ ولمْ تذهبْ لهمْ بعقولِ

وما زلتُ مِنْ ليلَى لدُنْ طرَّ شارِبي إلى اليومِ كالْملقَى بكلِّ سبيلِ

فهؤلاء البائسون قد صبروا على أحبَّتهم إمَّا طائعين وإمَّا كارهين فإن كانوا طائعين فهو أحمدُ ممَّن يتلاعب وينتقل في كل ساعة عن إلفه إلى سواه وإن كانوا كارهين فإنَّ السبب الَّذي اضطرهم إلى المقام على ما يؤلمهم ويمنعهم عن الانتقال إلى ما يختارونه لو لم يكن سبباً أملك بهم منهم ما عليهم فهم على كل الجهات أتمُّ في الحال ممَّن جعل هواه ضرباً من الإشغال ينفرد له إذا نشط ويتركه إذا كسل كالذين قدَّمنا وصفهم في صدر هذا الكتاب من أنَّهم لم يرتقوا في المحبَّة على من انتهى بل صعدوا بأول نظرة إلى ذروتها فكما كان ارتقاؤهم سريعاً كان انحطاطهم قريباً.

---

[1] الأمالي ٢/ ٦٤

مَنْ شابتْ ذوائبهُ جفاهُ حبائبهُ

يُحكى عن بعض الأكاسرة أنه قال : كنت أظن أني إذا شبت زهدت في النساء فلم أزل مغموماً بذلك ولم أدر أنّي إذا شبت كنت أنا فيهنَّ اشدّ زهداً ولعمري إن من قرب من آخر عمره لجدير أن يصرف همَّته إلى ما يعيد عليه نفعاً في آخرته ويتشاغل بأحكام الدَّار الَّتي يصير إليها عن أسباب الدَّار الَّتي ينتقل عنها فإن لم يقع ذلك له اختياراً وقع أكثره به اضطراراً.

قال جميل بن معمر :

تقولُ بثينةُ لَمَّا رأتْ فنوناً منَ الشَّعرِ الأحمرِ
كبرتَ جميلُ وأوْدَى الشَّبابُ فقلتُ بُثَينُ ألا فاقصري
أتنسينَ أيَّامَنا باللِّوَى وأيَّامَنا بذوي الأجفرِ
وإذْ لمَّتي كجناحِ الغُرا ب تُطلَى بالمسكِ والعنبرِ
قريبانِ مربعُنا واحدٌ فكيفَ كبرتُ ولَمْ تكبَري

وهذا تعريض مليح بل هو تعبير لها صريح لأنه قد ذكر أنَّهما كانا قرينين ومحالٌ أن يكبر واحد ويصغر واحد فهو قد عيَّرها كما عيَّرته وقد يحتمل أن يكون لم يردْ تعييرها وإنما أراد أنَّ السبب الَّذي ظهر له ليس من كبره وإنما هو لأهوال ما يمرُّ به .

obeikandl.com

مَنْ يئسَ مِّن يهواهُ فلمْ يلتفتْ مِنْ وقتهِ سلاهُ

العلَّة في ذلك أنَّ اليأس هو مفارقة النَّفس للرَّجاء الَّتي كانت تعتاض به من حال الصّفات وتتماسك بمسامرته من سطوة الفراق الَّذي مُنيت بمشاهدته فأوَّل روعات اليأس تلقى القلب وهو غير مستعد لمقاومتها ولا مُصاب بمشاهدتها فتجرحه دفعةً واحدةً عادةً إلى غير عادة والرَّوعة الثانية ترد على القلب وقد ذلَّلته لها الرَّوعة الأوَّلة فللثانيةِ ألم المعاودة وليس لها ألمٌ وفقد العادة والرَّوعة الأوَّلة فيها مشاهدة المكروه ومفارقة ما تعوَّدت من المحبوب فإن هي لم تُتلف وفيها مكروهان لم تتلف الثانية وليس فيها إلاَّ أحدهما وكذلك كلّ روعة يجلبها الفكر والتَّذكُّر هي أهون من الَّتي قبلها لأن المتقدّمة قد انذرت بها ووطَّأت المواضع لها حتَّى ينحلَّ ذلك أجمع من النَّفسَ حالاً بعد حالٍ لأنَّ دوام الرَّوعات إنَّما يكون بتنازع

المخاوف والآمال فإذا وقع اليأس زال الخوف بوقوع المخوَّف وانقطع الأمل بذهاب المأمول.

فإذا بقيت الخواطر بغير محرك يزعجها تحللت مضاضة ذلك الألم الَّذي نزل بها ألا ترى أنَّ الحريق إذا صبَّ عليه الماء أفسد الماء موضعاً وأفسدت النار آخر. . . . . قائمين فإذا ذهبا جميعاً بقي من تأثير النَّار يبس وحرارات ومن تأثير الماء برد ورطوبات ثمَّ تحلَّلا جميعاً على مرّ الأوقات.

والعلَّة في قتل روعة اليأس الأوَّلة أنَّ القلب يُحمى بورود المكاره عليه وسبيل سائر البدن أن يمدَّ القلب بمثل ما فيه من حرّ أو برد فإذا كثر ذلك انهتك حجاب القلب فكان التَّلف حينئذ؛ لأنَّ القلب لا يصل إليه ألم نيَّة غير الألم الفكرة إلاّ أتلف صاحبه والعامَّة تقول شهق فلان فلا تصدَّعت مرارته.

ولعمري إنَّ المرارة لتحمى ولو زادت حرارتها لانصدعت ولو انصدعت لأتلفت ولكن إلى أن تحمل المرارة حمَّى تصدِّعها يكون قد حمي القلب وتصدَّع بل تقطَّع ومثل ذلك لو أنَّ قدراً من شمع وقار

ثمَّ صبَّ فيها ماء ثمَّ أوقد تحتها النار فلعمري إنَّ النَّار تذيب القار وإنَّ القار إذا ذاب انصبَّ الماء غير أنَّ قبل ذوب القار يكون انحلال الشمع وتليفةُ النَّار فكذلك القلب ينهتك حجابه بالحرارة المنحازة إليه قبل انهتاك الحرارة بحين طويل وتظنّ العامّة بل كثير من الخاصة أنَّ الزّفير سبب التَّلف وليس الأمر كذلك بل هو إذا أراد الله عزّ وجلّ سبب لدفع التَّلف وذلك أنَّ القلب إذا أفرط الحميُ عليه اجتلبت له القوى الغريزيَّة روحاً تدفع مضرَّة ذلك عنه فتجلبه له من نسيم الهوى الخارج عنه فربَّما جاء من النّسيم ما يدفع مضرَّة تلك الحرارة فيكون زفير ولا يكون تلف وربَّما ضعف النّسيم المجتلب وحمي في المجاري لشدَّة ما يلقاه من الحرارات فيعجز برده عن دفع مضرَّة الحرارة المحيطة بالقلب فتهتك الحرارة الحجاب ويكون التلف فلأنَّهم يرون التَّلف على أثر الزَّفرة يرون أنه قد وقع من أجلها وهو في الحقيقة إنَّما وقع من أجل ضدّها .

وقد تقتل أيضاً أوَّل مفاجأة الفرح الغالب بإفراط بردها كما تقتل أوَّل مفاجأة الحزن بإفراط حرّها لأنه ينحاز إلى القلب من سائر الأعضاء برد لا تفي به حرارة الغريزيَّة فيجمد دم القلب ويحدث

التَّلف ولا يكون معه زفير ولا شهيق لأن النَّفس لا تجتلب الحرارة من خارج البدن كما تجتلب البرودة .

وقولهم أقرَّ الله عينك وأسخن الله عين فلان إنَّما هو لأنَّ دمعة الحزن حارَّة ودمعة الفرح باردة وكلّ واحدة من الفرح والحزن إذا استوطن النَّفس أنست بمجاورته قليلاً حتَّى يصير كالخلق المعتاد لها وكالطبع القائم بها ومن جيد ما قيل في باب التَّسلِّي عمَّن يئس منه قولُ العبّاس بن الأحنف[1]:

هيَ الشَّمسُ مسكنُها في السَّماء فعزِّ الفؤادَ عزاءً جميلا
فلنْ تستطيعَ إليها الصُّعودَ ولنْ تستطيعَ إليكَ النُّزولا

وقال امرؤ القيس[2]:

عيناكَ دمعُهما سِجالُ كأنَّ شأنيهما أوشالُ
مِنْ ذكرِ ليلَى وأينَ ليلَى وخيرُ ما نلتَ ما ينالُ

---

[1] التمثيل والمحاضرة ص٢٢٨

[2] الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي ص١٣٠

فهؤلاء قد سلوا على أوَّل روعات اليأس فمنهم من تشاغل بإظهار الحنين تجمّلاً للنَّاس ومنهم من صرَّح بالسّلوِّ عن نفسه ومنهم من اشتغل بمعالجة ما بقي من الهوَى في قلبه ونحن الآن نذكر طرفاً من أخبار من تمكَّنت الرَّوعة الأولى من نفسه وتظاهر سلطانه على قلبه فبلغ إلى ما لا يمكن منه تلاف ولا ينفع فيه استعطاف يُروى عن رجل من مُزينة يقال له ابن عاصم عن أبيه قال بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلّم في سريَّة وقال إن رأيتم مسجداً أو سمعتم مؤذّناً فلا تقتلوا أحداً وإنَّا قد لقينا قوماً فأسرناهم ورأى نسوة وهو في ذمَّته فدنا إلى هؤلاء أفض إليهنَّ فدنَا إلى امرأة منهنَّ فقال أسلمي حُبيش قبل نفاذ العيش.

أرأيتِ إذ طالبتكمْ فوجدتمُ ... بخَليةَ أوْ ألفيتكمْ بالخوانقِ

ألمْ يكُ حقّاً أنْ ينوَّلَ عاشقٌ ... تكلّفَ إدلاجَ السُّرى والودائقِ

فلا ذنبَ لي قدْ قلتُ إذ أهلُنا معاً ... أثيبي بودٍّ قبلَ إحدَى الصَّفائقِ

أثيبي بودٍّ قبلَ أنْ تشحطَ النَّوى ... ويَنأى الأميرُ بالحبيبِ المفارقِ

قال فقالت وأنت فحييت عشراً وتسعاً وتراً وثمانياً تترًا قال ثمَّ قدَّمناه فضربنا عنقه فنزلت إليه امرأة تخصُّه فأكبَّت عليه فما زالت تحنُّ عليه حتَّى ماتت[1].

وقال الجاحظ ذُكرت لأمير المؤمنين المتوكّل لتأديب بعض ولده فلمَّا رآني استشبع منظري فأمر لي بعشرة آلاف وصرفني فخرجت من عنده فلقيت محمَّد بن إبراهيم وهو يريد الانحدار إلى مدينة السَّلام فعرض عليَّ الخروج معه وقرَّب حرَّاقته ونصب ستارته وأمر بالغناء فاندفعتْ عوَّادة له فغنَّت:

كلَّ يـــوم قطيـــعةٌ وعتابُ ... ينقضي دهرُنا ونحنُ غضابُ
ليتَ شعري أنا خُصصتُ بهذا ... دونَ ذا الخلقِ أمْ كذا الأحبابُ

ثمَّ سكتت وأمر طُنبوريَّة فغنَّت:

وا رحمَتَـــا للعاشقـينا ... ما إنْ أرَى لهمُ مُعينا
كمْ يهجرونَ ويُضربونَ ... ويُقطعونَ فيصبرُونا

---

[1] معرفة الصحابة ٤/ ٢١٤٤

فقالت لها العوّادة فيصنعون ماذا؟ قالت ويصنعون هكذا وضربت بيدها إلى السّتارة فهتكتها وبرزت كأنّها فلقة قمر فزجّت نفسها إلى الماء .

قال وعلى رأس محمّد غلام يضاهيها في الجَمال وبيده مذبّة فلمّا رأى ما صنعت ألقى المذبّة من يده وأتى الموضع فنظر إليها وهي تمرُّ بين الماء فأنشأ يقول:

أنتَ الّتي غرّقْتني بعدَ القضَا لوْ تعلَمينا

وزجّ بنفسه في أثرها فأدار الملاّح الحرّاقة فإذا بهما معتنقان ثمّ غاصا فلم يُريا فهال ذلك محمداً واستفظعه وقال لي أبا عمرو ولتحدّثني بحديث يُسليني عن فعل هذين وإلا ألحقتك بهما. قال فحضرني خبر سليمان بن عبد الملك وقد قعد للمظالم وعُرضت عليه القصص فمرّت به قصّة فيها إن رأى أمير المؤمنين أعزّه الله أن يُخرج إليّ جاريته فلانة حتّى تغنّيني ثلاثة أصوات فعل فاغتاظ سليمان وأمر من يخرج إليه فيأتيه برأسه واسترجع وأتبع الرسول برسول آخر يأمره أن يدخل إليه فلمّا وقف بين يديه قال له ما الّذي حملك على ما صنعت؟ قال الثّقة بحملك والاتّكال على عفوك فأمره بالقعود حتّى إذا لم يبق من بني أُميّة أحد إلاّ خرج فأمر

فأُخرجت الجارية ومعها عودها ثمَّ قال قل لها غنِّي فقال لها الفتى غنِّي:

أفاطمَ مهـــــلاً بـعضَ هذا التَّدلُّلِ

وإن كنتِ قدْ أزمعتِ هجري فاجْملي

فغنَّته فقال له سليمان قل قال تأمر لي برطل فشربه ثمَّ قال له قل قال غنِّي:

تألَّقَ البرقُ نجديّاً فقلتُ لهُ يا أيُّها البرقُ إنِّي عنكَ مشغولُ

فغنَّته فقال له سليمان قل قال تأمر لي برطل فأُتي برطل فشربه ثمَّ قال له قل قال غنِّي:

حبَّذا رجعُها إليها يدَيْها في يدَيْ درعِها تحلُّ الإزارا

فغنَّته فقال له قل قال تأمر لي برطل فأُتي برطل فما استتمَّ شربه حتَّى وثب فصعد على قبَّة لسليمان فرمى بنفسه على دماغه فقال سليمان إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون أتراه الأحمق الجاهل ظنَّ أنِّي أُخرج الجارية إليه وأردُّها إلى ملكي يا غلمان خذوا بيدها فانطلقوا بها إلى أهله إن كان له أهل وإلا فبيعوها وتصدَّقوا عنه فلمَّا انطلقوا

بها نظرت إلى حفرة في دار سليمان قد أُعدَّت للمطر فجذبت نفسها من أيديهم وأنشأت تقول:

مَنْ ماتَ عشقاً فليمتْ هكذا ... لا خيرَ في الحبِّ بلا موتِ

وزجَّت بنفسها على دماغها فماتت فسُري عن محمَّد وأحسن صلتي وذكر لنا أنَّ محمَّداً بن حميد الطُّوسي كان جالساً مع ندمانه يوماً فغنَّت جارية له وراء السِّتارة:

يا قمرَ القصرِ متى تطلعُ ... أشقَى وغيري بكَ مُستمتعُ
إنْ كانَ ربِّي قدْ قضَى كلَّ ذا ... منكَ علَى رأسِي فما أصنعُ

قال وعلى رأس محمَّد غلام بيده قدح يسقيه فرمى بالقدح من يده وقال تصنعين هكذا ورمى بنفسه من الدَّار إلى الدِّجلة فهتكت الجارية السِّتارة ثمَّ رمت بنفسها على أثره فنزل الغاصة خلفها فلم يجدوا واحداً منهما فقطع محمَّد الشُّرب وقام من مجلسه[1].

---

[1] مرآة الجنان ٢/ ١٢١ ، الكشكول ١/ ٤٥

-٤٩-

لا يُعرف المقيمُ على العهدِ إلاَّ عندَ فراقٍ أو صدٍّ

من شأن من كان مجاوراً لأحبَّائه وسامحته الأيَّام ببلوغ محابّه أن يصرف خواطره إليهم وان لا يؤثر صحبة أحد غيرهم عليهم بل الجاري من عادة أهل الأدب إذا أقبل عليهم يستثقلون أن يظهروا له المودَّة بل يعتقدونها في الحقيقة فإذا كانت هذه حال أهل الأدب مع من يعاشرهم من غير الأحباب كان أحبابهم أحرى أن يغلبوا على قلوبهم وإنَّما يبين الصَّادق في هواه إذا فارقه أو صدَّ عنه من يهواه فأقام حينئذ عليه ولم ينتقل إلى ما سواه.

لعمر بن أبي ربيعة[1]:

يقولونَ إنِّي لستُ أصدقُ في الهوَى وإنِّي لا أرعاكَ حينَ أغيبُ

فما بالُ طرفِي عفَّ عمَّا تساقطتْ لهُ أنفسٌ مِنْ معشرٍ وقلوبُ

---

[1] زهر الآداب وثمر الألباب ١/ ٢٩٧

عشـــيَّةَ لا يستـــنكرُ القومُ إنْ رأوْا ســـفاهَ الحِجى ممَّنْ يُقالُ لبيبُ

ولا نظرةً مِنْ عاشقٍ إنْ مضتْ لهُ بعينِ الصِّبى كسلَى القيامِ لعوبُ

يُـــروِّحُ يـــرجُو أنْ تحطَّ ذنـــوبهُ فـــراحَ وقـــدْ عادتْ عليهِ ذنوبُ

obeikandl.com

قليلُ الوفاءِ بعدَ الوفاةِ أجلُّ مِنْ كثيرِهِ وقتَ الحياةِ

الوفاء اسم للثَّبات على الشَّرائط فكلٌّ من عقد على نفسه أو عقد عليه غيره ممَّن يلزمه عقده شيئاً فثبت عليه ولم يزل عنه سمِّي موفياً وكلٌّ من شرط على نفسه شرطاً وزال عنه للزَّوال سمِّي غادراً وليس يسمَّى موفياً من فعل فعلاً جميلاً لم يشرط على نفسه فعله ولا شرطه عليه من يلزمه شرطه ولا يسمّى غادراً من فعل فعلاً قبيحاً لم يجب عليه تركه ولا شرط عليه من يحبُّ شرطه فالمحبوب يكون موفياً لمحبِّه ويكون غادراً بعهده والمحبّ لا يكون موفياً ولا غادراً لأنَّ محبَّته قائدةٌ له إلى محابّ إلفه فيما يصلح الانقياد إلى مثله فهو يأتي طاعته بطبعه لا وفاءً بشرط لزمه وكلّ من لم يصلح أن يسمَّى موفياً لم يصلح أن يسمَّى غادراً وإنَّما يصلح أن يكون المحبوب موفياً وغادراً لأنه يأتي ما يأتيه مختاراً ويشرط لإلفه الشَّرائط على نفسه فيفعل ما ضمن أو يتركه فيكون موفياً أو غادراً بفعله أو تركه وهذا الَّذي ذكرناه من أنَّ المحبّ لا يكون موفياً ولا

غادراً إنَّما هو ما دامت محبَّته قائمة فأمَّا إذا زالت المحبَّة بسلوٍّ عارض أو بوفاة المحبوب فالمحبّ حينئذ يكون موفياً غادراً.

قال الأصمعي: مررت أنا وصاحب لي بجارية عند قبر، لم أر أحسن ولا أجمل منها، وعليها ثياب نظيفة وحلي كثير، وهي تبكي على القبر، فلم نزل نتعجب من جمالها وزينتها وحزنها، فقلت: يا هذه! علام هذا الحزن الشديد؟ فبكت، ثم أنشأت تقول:

فَلا تَسألاني فيمَ حُزْني، فإنّني رَهينَةُ هّذا القَبرِ يَا فَتَيانِ
وَإني لأستَحييهِ وَالتُّرْبُ بَيننَا كما كنتُ أستَحييهِ حينَ يَرَاني

فعجبنا منها ومن ظرفها وجمالها، واستحيينا منها، فتقدمنا قليلاً، ثم جلسنا نسمع ما تقول، ولا ترانا، ولا تعلم بنا، فسمعناها تقول:

يا صَاحبَ القبرِ يا من كان يؤنسني وكانَ يُكثرُ في الدُّنيا مُؤاتَاتي
قد زُرتُ قبرَكَ في حَلْيي وَفي حُللي كأنّني لَستُ من أهلِ المُصيباتِ
لزمتُ ما كنتَ تَهوَى أن تَرَاهُ وَما قد كنتَ تَألَفُه من كلِّ هيئاتي

فَمنْ رآني رأى عَبْرَى مُوَلَّهَةً ... مَشهورَةَ الزِّيِّ تَبكي بينَ أمواتِ

فلم نزل قعوداً حتى انصرفت واتبعناها، حتى عرفنا موضعها، ومن هي، فلما خرجت إلى هارون الرشيد قال لي: يا أصمعي! ما أعجب ما رأيت بالبصرة؟ فأخبرته خبرها، فكتب إلى صاحب البصرة أن يمهرها عشرة آلاف وتجهز وتحمل إليه، فحملت إلى هارون، وقد سقمت حزناً على الميت، فلما وصلت إلى المداين ماتت، فقلما ذكرها هارون إلا دمعت عيناه[1].

وليس موت هذه المرأة بعد وفاة زوجها بمدَّة نقضاً لما قدَّمنا ذكره في الباب الَّذي ذكرنا فيه أنَّ من يئس ممَّن يهواه فلم يلتفت من وقته سلاه لما قدَّمنا في ذلك من البرهان وأرينا فيه من الأمثال.

ونحن نقول الآن من فجأه الحزن دفعة واحدة من غير مقدّمة حتَّى يمضي عليه مدَّة خوف جوًى ولا حذار طبيعي لم يستنكر منه أن يزول تمييزه فلا يفهم ما نزل به حتَّى تمضي عليه مدة متطاولة فربَّما انحلَّت سكرته إلى إفاقة سلوٍّ مريح وربَّما انحلَّت بوقوع تلف صحيح وعلى أنَّ الضَّنين المشفق العالم بنوب الزَّمان والمستعدّ

---

[1] مصارع العشاق ٢/ ٨٨

لخطوب الأيّام قد يلحقه بمفاجأة المكروه ما يزيل تمييزه ويبطل تدبيره وينسيه ما كان ذاكراً له ولمعترفاته .

وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ناله من وفاة النبي صلى الله عليه وسلّم ما لا خفاء به على الخاصَّة ولا على كثير من العامَّة من انتضائه سيفه وقوله إنَّ رسول الله لا يموت وليقومنَّ فليقطّعنَّ أيدي رجال وأرجلهم حتَّى قال له أبو بكر الصديق رضي الله عنه إن الله جلَّ وعزَّ يقول) إنَّك ميتٌ وإنَّهم ميّتون (قال عمر رضي الله عنه فكأنّي لم أسمعه إلاَّ يومئذ .

ويروى عن إبان تغلب أنه قال بينا أنا في بعض الفلوات في طلب ذود ضالَّة إذ بصرت بجارية أعشَى إشراق وجهها بصري فقالت لي مالي أراك مدلَّهاً قلت في طلب ذود لي ضالَّة قالت هل أدلّك على من يعلم علمهنَّ فإن شاء ردَّهنَّ عليك فقلت نعم بأبي أنت مسرعاً قالت إنَّ الَّذي أعطاكهنَّ هو الَّذي أخذهنَّ فاسأله من طريق اليقين لا من طريق الاختيار فلمَّا رأيت حسن منظرها وحلاوة منطقها قلت هل لك من زوجٍ؟ قالت كان فدُعيَ فعاد إلى ما منه خُلق فأجاب فقلت فهل لك من زوجٍ لا تُخشى بوائقه ولا

تذمُّ خلائقه؟ فأطرقت مليّاً وعيناها تهملان بالدُّموع ثمَّ أنشأت تقول:

كنَّا كغُصنين في أرضٍ غذاؤهُما ماءُ الجداول في روضاتِ جنَّات
وكانَ عاهدَني إنْ خانَني زمنٌ ألاَّ يضاجعَ أُنثَى بعدَ مثواتي
وكنتُ عاهدتهُ أيضاً فعاجلَهُ ريبُ المنون قريباً مُذْ سُنيَّات
فاردعْ عنانكَ عمَّنْ ليسَ يخلبُها عنِ الوفاءِ خلاَبٌ بالتَّحيَّاتِ[1]

ويروى عن الأصمعي أنه قال دخلت فإذا أنا بامرأة تنوح على قبر وهي مسفرة فلمَّا رأتني غطَّت وجهها ثمَّ كشفته فقالت[2]:

لا صنتُ وجهاً كنتَ صائنهُ يوماً ووجهكَ في الثَّرى يبلَى
يا عِصمتي في النَّائباتِ ويا رُكني القويَّ ويا يدي اليُمنَى

وقالت ليلَى الأخيلية ترثي توبة بن الحمير[3]:

وأقسمتُ أبكِي بعدَ توبةَ هالكاً وأحفلُ مَنْ دارتْ عليهِ الدَّوائرُ

---

[1] بلاغات النساء ص١٨١

[2] بلاغات النساء ص١٨٩

[3] جواهر الأدب ٢/ ٣٩٢

لعمركَ ما بالموت عارٌ علَى الفتَى إذا لمْ تصبهُ في الحياة المعايرُ
ولا الحيُّ ممَّا يحدثُ الدَّهرُ معتبٌ ولا الميتُ إنْ لمْ يصبرِ الحيُّ ناشرُ
وما أحدٌ حيّاً وإنْ كانَ ناجياً بأخلدَ ممَّنْ غيَّبتهُ المقابرُ
وكلُّ شبابٍ أوْ جديدٍ إلى بلًى وكلُّ امرئٍ يوماً إلى الله صائرُ

وذكروا أنَّها دخلت على الحجاج بن يوسف يوماً فقال لها بلغني أنَّك مررت على قبر توبة فعدلت عنه فوالله ما وفيت له ولو كان مكانك ما عدل عن قبرك فقلت أصلح الله الأمير إنَّ لي عذراً قال وما هو قالت إنِّي سمعته يقول:

ولو أنَّ ليلَى الأخيليَّةَ سلَّمتْ عليَّ وفوقي تربةٌ وصفائحُ
لسلَّمتُ تسليمَ البشاشةِ أوْ زَقَا إليها صدًى منْ جانبِ القبرِ صائحُ

وكان معي نسوة قد سمعن قوله فكرهت أن أمرَّ بهنَّ على قبره فلا يكون ما قال فأكون قد كذَّبته فاستحسن الحجَّاج ذلك منها وأمر بقضاء حوائجها[1].

---

[1] الجليس الصالح ص٧٧

ويُحكى أنَّ جميلاً لَمَّا حضرته الوفاة قال: من يأخذ ناقتي هذه وما عليها ويأتي ماء بني فلان فينشد عنده هذين البيتين؟ فقال له بعض من حضره: أنا، فأنشده:

ذكرَ النَّعيُّ وما كَنَا بجميلٍ وثوَى بمصرَ ثواءَ غيرِ قُفولِ
غدرَ الزَّمانُ بفارسٍ ذي بَهمةٍ ثبتٍ إذا جعلَ اللّواءُ يزولُ

فلمَّا قضى حياته أتى الرَّجل الماء الَّذي وُصف له فأنشد البيتين عنده فخرجت بُثينة ناشرةً شعرها شاقَّةً جيبها لاطمةً وجهها وهي تقول: يا أيُّها النَّاعي بفيكَ الحجرُ أمَا والله لئنْ كذَبْتني لقد فضحتني ولئن كنتَ صدقتَني لقد قتلتني ثمَّ أنشأت تقول:

وإنَّ سلوِّي عنْ جميلٍ لساعةٌ منَ الدَّهرِ ما جاءتْ ولا حانَ حينُها
سواءٌ علينا يا جميلُ بنَ معمرٍ إذا متَّ بأساءُ الحياةِ ولينُها[1]

ويقال أنَّها لم تقل شعراً غيره.

---

[1] مصارع العشاق ٢/ ٥٩

وذكروا أنَّ عروة بن حزام لَمَّا انصرف من عند عفراء ابنة عقال فتوفِّي وجداً بها وصبابةً إليها مرَّ به ركبٌ فعرفوه فلمَّا انتهوا إلى منزل عفراء صاح صائح منهم:

ألا أيُّها القصرُ المغفَّلُ أهلهُ نعَيْنا إليكمْ عُروةَ بنَ حزامِ

ففهمت صوته ففزعت وأشرفت فقالت:

ألا أيُّها الرَّكبُ المُخبُّونَ ويحَكُم بحقٍّ نعيتمْ عروةَ بنَ حزامِ

فأجابها رجل من القوم:

نعمْ قدْ تركناهُ بأرضٍ بعيدةٍ مُقيماً بها في سبسبٍ وأكامِ

فقالت لهم:

فإنْ كانَ حقّاً ما تقولونَ فاعلمُوا بأنْ قدْ نعيتمْ بدرَ كلِّ ظلامِ

فــلا لقيَ الفتيــانُ بعــدكَ لذَّةً ولا رَجعوا منْ غيبةٍ بسلامِ

ولا وضــعتْ أُنثَى تمامــاً بمثله ولا فرحتْ مَـنْ بعدَه بغُلامِ

ولا لا بلغتــمْ حيثُ وجِّهتمُ لـهُ ونُغِّصتمُ لـذَّاتِ طـلِّ طعامِ

ثمَّ سألتهم أين دفنوه فأخبروها فسارت إلى قبره فلمَّا قاربته قالت: أنزلوني فإنِّي أُريد قضاء حاجةٍ فأنزلوها فانسلَّت إلى القبر

فانكبَّت عليه فما راعهم إلاَّ صوتها فلمَّا سمعوه بادروا إليها فإذا هي ممدودة علَى القبر قد خرجت نفسُها فدفنوها إلى جنبه[1].

تمَّ القول ولله الحمد والمنَّة والصَّلاة علَى رسول الله.

obeikandl.com

[1] مصارع العشاق ١/ ٣٢٠

المراجع

- أحسن ما سمعت / عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي (المتوفى: ٤٢٩هـ) / دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان / الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م
- أخبار النساء / جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ) / الناشر: دار مكتبة الحياة، بيروت – لبنان / عام النشر: ١٩٨٢
- الأغاني / أبي الفرج الأصفهاني / دار الفكر - بيروت / الطبعة الثانية .
- الأمالي / عبد الرحمن بن إسحاق البغدادي النهاوندي الزجاجي، أبو القاسم (المتوفى: ٣٣٧هـ) / الناشر: دار الجيل – بيروت / الطبعة: الثانية، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م

- البديع في نقد الشعر / أبو المظفر مؤيد الدولة مجد الدين أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني الكلبي الشيزري (المتوفى: ٥٨٤هـ) / الناشر: الجمهورية العربية المتحدة ـ وزارة الثقافة والإرشاد القومي ـ الإقليم الجنوبي ـ الإدارة العامة للثقافة .
- بلاغات النساء / أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر ابن طيفور (المتوفى: ٢٨٠هـ) / الناشر: مطبعة مدرسة والدة عباس الأول، القاهرة / عام النشر: ١٣٢٦ هـ ـ ١٩٠٨ م
- التذكرة الحمدونية / محمد بن الحسن بن محمد بن علي بن حمدون، أبو المعالي، بهاء الدين البغدادي (المتوفى: ٥٦٢هـ)/ الناشر: دار صادر، بيروت / الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ .
- الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي/ أبو الفرج المعافى بن زكريا بن يحيى الجريرى النهرواني (المتوفى: ٣٩٠هـ) / الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان / الطبعة: الأولى ١٤٢٦ هـ ـ ٢٠٠٥ م

- جمهرة الأمثال / أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ) / الناشر: دار الفكر - بيروت
- جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب/ أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي (المتوفى: ١٣٦٢هـ) / الناشر: مؤسسة المعارف، بيروت .
- الحماسة البصرية / علي بن أبي الفرج بن الحسن، صدر الدين، أبو الحسن البصري (المتوفى: ٦٥٩هـ) / الناشر: عالم الكتب – بيروت .
- حياة الحيوان الكبرى / محمد بن موسى بن عيسى بن علي الدميري، أبو البقاء، كمال الدين الشافعي (المتوفى: ٨٠٨هـ) / الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت / الطبعة: الثانية، ١٤٢٤ هـ .
- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب / عبد القادر بن عمر البغدادي (المتوفى: ١٠٩٣هـ)/ الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة / الطبعة الرابعة، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م

- دمية القصر وعصرة أهل العصر / علي بن الحسن بن علي بن أبي الطيب الباخرزي، أبو الحسن (المتوفى: ٤٦٧هـ)/ الناشر: دار الجيل، بيروت / الطبعة: الأولى، ١٤١٤ هـ
- الذخائر والعبقريات / عبد الرحمن بن عبد الرحمن بن سيد بن أحمد البرقوقي الأديب المصري (المتوفى: ١٣٦٣هـ) / الناشر: مكتبة الثقافة الدينية، مصر
- ربيع الأبرار ونصوص الأخيار / جار الله الزمخشري توفي ٥٨٣ هـ / الناشر: مؤسسة الأعلمي، بيروت / الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ
- روضة المحبين ونزهة المشتاقين / محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ) / الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان/ الطبعة: ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣ م

- زهر الآداب وثمر الألباب / إبراهيم بن علي بن تميم الأنصاري، أبو إسحاق الحُصري القيرواني (المتوفى: ٤٥٣هـ) / الناشر: دار الجيل، بيروت
- سمط اللآلي في شرح أمالي القالي / أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الأندلسي (المتوفى: ٤٨٧هـ) / الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان
- شرح ديوان الحماسة / أبو على أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي الأصفهاني (المتوفى: ٤٢١ هـ) / الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان / الطبعة: الأولى، ١٤٢٤ هـ ـ ٢٠٠٣ م
- شرح نقائض جرير والفرزدق / أبو عبيدة معمر بن المثنى / الناشر: المجمع الثقافي، أبو ظبي، الإمارات / الطبعة: الثانية، ١٩٩٨م
- الشعر والشعراء / أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى: ٢٧٦هـ) / الناشر: دار الحديث، القاهرة / عام النشر: ١٤٢٣ هـ

- الظرف والظرفاء / محمد بن أحمد بن إسحاق بن يحيى، أبو الطيب، المعروف بالوشاء (المتوفى: ٣٢٥هـ) / الناشر: مكتبة الخانجي، شارع عبد العزيز، مصر ـ مطبعة الاعتماد / الطبعة: الثانية، ١٣٧١ هـ ـ ١٩٥٣ م
- العقد الفريد / أبو عمر، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه ابن حبيب ابن حدير بن سالم المعروف بابن عبد ربه الأندلسي (المتوفى: ٣٢٨هـ) / الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت / الطبعة: الأولى، ١٤٠٤ هـ
- عيون الأخبار / أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى: ٢٧٦هـ) / الناشر: دار الكتب العلمية –بيروت / تاريخ النشر: ١٤١٨ هـ
- الكامل في اللغة والأدب / محمد بن يزيد المبرد، أبو العباس (المتوفى: ٢٨٥هـ) / الناشر: دار الفكر العربي – القاهرة / الطبعة: الطبعة الثالثة ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٧ م
- الكشكول / محمد بن حسين بن عبد الصمد الحارثي العاملي الهمذاني، بهاء الدين (المتوفى: ١٠٣١هـ)

/ الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان / الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م

- المحاسن والأضداد / عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (المتوفى: ٢٥٥هـ) / الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت / عام النشر: ١٤٢٣ هـ

- مصارع العشاق / جعفر بن أحمد بن الحسين السراج القاري البغدادي، أبو محمد (المتوفى: ٥٠٠هـ) / الناشر: دار صادر، بيروت

- الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري / أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي (ت ٣٧٠ هـ) / الناشر: مكتبة الخانجي - الطبعة الأولى، ١٩٩٤ م

- نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة / المحسن بن علي بن محمد بن أبي الفهم داود التنوخي البصري، أبو علي (المتوفى: ٣٨٤هـ) / عام النشر: ١٣٩١ هـ

- نشوة السكران / أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القنَّوجي (المتوفى: ١٣٠٧هـ) / الناشر: المطبعة الرحمانية بمصر/ الطبعة: الأولى، ١٣٣٨ هـ - ١٩٢٠ م

- نهاية الأرب في فنون الأدب / أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري، شهاب الدين النويري (المتوفى: ٧٣٣هـ) / الناشر: دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة / الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ

- الوَحشيَّات/ حبيب بن أوس بن الحارث الطائي، أبو تمام: الشاعر، الأديب (المتوفى: ٢٣١هـ)/ الناشر: دار المعارف، القاهرة / الطبعة: الثالثة

- الوساطة بين المتنبي وخصومه/ أبو الحسن علي بن عبد العزيز القاضي الجرجاني (المتوفى: ٣٩٢هـ) / الناشر: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه .

المحتويات

- المقدمة ص٥
- من كثُرت لحظاته دامت حسراته ص٨
- العقل عند الهوَى أسيرٌ والشَّوق عليهما أميرٌ ... ص١٠
- من تداوى بدائه لم يصل إلى شفائه ص١٤
- ليس بلبيبٍ من لم يصف ما به لطبيبٍ ص١٦
- إذا صحَّ الظفَرُ وقعت الغِيَرُ ص١٨
- التَّذلُّلُ للحبيبِ من شيمِ الأديبِ ص٢٢
- من طالَ سرورهُ قصرتْ شهورهُ ص٢٤
- مَن كانَ ظريفاً فليكنْ عفيفاً ص٢٧
- ليسَ منَ الظَّرفِ امتهانُ الحبيبِ بالوصفِ ص٣١
- سوءُ الظَّنِّ منْ شدَّةِ الضَّنِّ ص٣٤

obeikandl.com

- مَنْ وفَى الحبيبُ هانَ عليه الرَّقيبُ. ص٣٩
- من مُنع من كثير الوصال قنع بقليل النَّوال. ص٤١
- مَنْ حُجبَ منَ الأحبابِ تذلَّل للحجَّابِ. ص٤٥
- مَنْ مُنعَ منَ الوصولِ اقتصرَ علَى الرَّسولِ. ص٤٩
- مَنْ أحبَّه أحبابهُ وشَى به أترابهُ. ص٥١
- من لم يعاتب علَى الزَّلَّة فليس بحافظ للخُلّة. . . . ص٥٣
- من عاتب علَى كلِّ ذنب أخاه فخليقٌ أن يملَّه ويقلاه ص٥٥
- بُعد القلوب علَى قرب المزار. ص٥٧
- ما عتبَ منِ اغتفرَ ولا أذنبَ منِ اعتذر. ص٥٩
- إذا ظهرَ الغدرُ سهُل الهجرُ. ص٦٠
- مَنْ راعهُ الفراقُ ملكهُ الاشتياقُ. ص٦٣
- قلَّ من سلا إلاَّ غلبه الهوَى. ص٦٧

- مَنْ غلبهُ هواهُ علَى الصَّبر صبرَ لمنْ يهواهُ علَى الغدرِ ص٦٨
- مَنْ تجلَّد علَى النَّوى فقد تعرَّض للبلا ص٧٢
- في الوداعِ قبلَ الفراقِ بلاغٌ إلى وقتِ التَّلاقِ ص٧٤
- ما خُلق الفراق إلاَّ لتعذيب العشَّاق ص٧٨
- من غاب قرينهُ كثر حنينه ص٨١
- من لم يلحق بالحمول بكى علَى الطُّلول ص٨٢
- من قصَّر عن مصاحبة الجار لم تنفعه مسائلة الدَّار. ص٨٦
- من مُنع من البراح تشوَّق بالرِّياح ص٨٨
- في تلهُّب النِّيرانِ أُنسٌ للمدنف الحيران ص٩١
- في نوحِ الحَمامِ أُنسٌ للمنفردِ المُستهامِ ص٩٣
- من امتحن بالمفارقة والهجر اشتغل فكره بالعيافة والزَّجر ص٩٤
- في حنين البعير المفارق أُنسٌ لكلِّ صبٍّ وامقٍ ... ص٩٦

- من فاته الوصال نعشه الخيال. ص٩٧
- من مُنع من النَّظر استأنس بالأثر. ص٩٩
- مَنْ حُجبَ عن الأثرِ تعلَّل بالذِّكرِ. ص١٠٠
- مُسامرةُ الأوهامِ والأماني سببٌ لتمام العجزِ والتَّواني. ص١٠٢
- مَنْ قصُرَ نومُهُ طالَ ليلُهُ. ص١٠٤
- من غلب عزاه كثر بكاه. ص١٠٦
- نحول الجسد من دلائل الكمد. ص١٠٧
- طريق الصَّبر بعيدٌ وكتمان الحبِّ شديدٌ. ص١٠٩
- مَنْ غُلب صبرهُ ظهرَ سرُّهُ. ص١١١
- مَنْ لم يقعْ لهُ الهوَى باكتسابٍ لم ينزجرْ بالعتابِ. ص١١٥
- مَنْ قدُمَ هواهُ قويَ أساهُ. ص١١٨
- مَنْ شابتْ ذوائبهُ جفاهُ حبائبهُ. ص١٢٠

- مَنْ يئسَ ممَّن يهواهُ فلمْ يلتفتْ مِنْ وقته سلاهُ. . ص١٢٢
- لا يُعرف المقيمُ علَى العهدِ إلاَّ عندَ فراق أو صدٍّ. ص١٣١
- قليلُ الوفاءِ بعدَ الوفاةِ أجلُّ مِنْ كثيره وقتَ الحياةِ. ص١٣٣
- المحتويات. ص١٥٠

obeikandl.com